مبرة الآل والأصحاب

سلسلة الآل والأصحاب في الأدب العربي (٥)

الأمانة العامة للأوقاف

الصِّدِّيقتَان

مُدَارَسَاتٌ في تجَلِّيَات الاصْطِفَاء
للصدّيقتين فاطمة وعائشة رضي الله عنهما

وجدان العلي

مراجعة مركز البحوث والدراسات بالمبرة

الصِّدِّيقتَان

مُدَارَسَاتٌ في تجَلِّيَات الاصْطِفَاء

للصدّيقتين فاطمة وعائشة رضي الله عنهما

مكتبة الكويت الوطنية
National Library of Kuwait

عنوان الكتاب : الصديقتان

اسم المؤلف : وجدان العلي

نوع المطبوع : كتاب ـ الطبعة : الأولى ـ عدد الصفحات : ١٨٣

السلسلة : الآل والأصحاب في الأدب العربي (٥)

الناشر : مبرة الآل والأصحاب

ردمك: ٤ـ٧٢ ـ ٦٤ ـ ٩٩٩٦٦ ـ ٩٧٨ ISBN

حقوق الطبع محفوظة لمبرة الآل والأصحاب

إلا لمن أراد التوزيع الخيري بشرط عدم التصرف في المادة العلمية

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ ـ ٢٠٢٢م

مبرة الآل والأصحاب

هاتف: ٢٢٥٦٠٢٠٣ ـ ٢٢٥٥٢٣٤٠ فاكس: ٢٢٥٦٠٣٤٦

ص. ب: ١٢٤٢١ الشامية الرمز البريدي ٧١٦٥٥ الكويت

E ـ mail: almabarrh@gmail. com

www. almabarrah. net

مبرة الآل والأصحاب

سلسلة الآل والأصحاب في الأدب العربي (٥)

الأمانة العامة للأوقاف

الصِّدِّيقتَان

مُدَارَسَاتٌ في تجَلِّيَات الاصْطِفَاءِ
للصدِّيقتين فاطمة وعائشة رضي الله عنهما

وجدان العلي

مراجعة مركز البحوث والدراسات بالمبرة

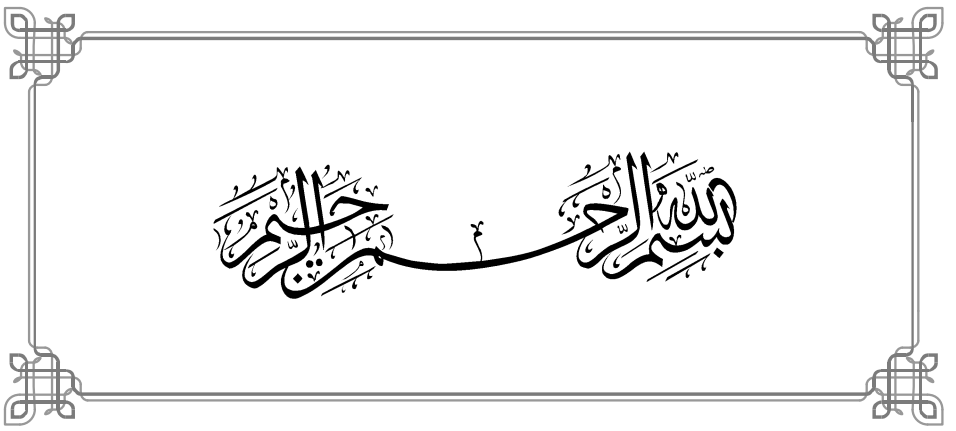
بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المبرة	٩
خطبة الكتاب	١١
كلمة في المنهج	١٤
الحب الأعلىٰ	١٧
شواهِدُ الحب	١٩
جذور النور	٢٣
الظلُّ الوارف	٢٣
معالم الاصطفاء	٣٣
مدارسة المناقب	٣٤
النور الأول	٣٥
الاختصاص بالريحانتين	٣٧
نظر شريف	٣٨
النور الثاني	٤١
خزانة الصبر	٤١
الإيمان المخْبِت	٤١
الباسلة	٥١
أُمُّ أبِيها	٥٤

الموضوع	الصفحة

الفراغ الشريف ٥٦
البلاغة القاصدة ٦٢
طبقات النفوس ومعادنها ٦٦
حسبي كلمة ! ٧٠
الحياء المفارق ٧٣
هرولة ٧٩
فَدَك الصِّدِّيقين ٨٢
أصل نفيس ٨٣
وإليك الخبرَ مُفَصَّلا ٩٣
بلاء عظيم ٩٤
رضاكمُ قصدي ٩٦
ذلك القلب! ٩٨
الحبيبة ٩٩
الهدية الإلٰهية ١٠٤
بوابة الرضا النبوي ١٠٦
ثمرات الحب والاصطفاء ١١٠
أولا: الزواج منها بوحي ١١٠
ثانيًا: إنها ابنة أبي بكر! ١١١
المبَاركة ١١٣

الموضوع	الصفحة

المؤنسة ١١٦
إطلالة الحب ١١٩
مسامرات الأُنْس ١٢٢
حدائق الاطمئنان ١٢٥
مكاشفات الحب ١٣١
أمينةٌ يا جِراح الحبيب! ١٣٦
فَلَك الرضا ١٣٧
بريق الصفاء ١٤١
١ ـ توقيع الصِّدِّيقة ١٤٢
٢ ـ الصفاء الفذ ١٥٠
٣ ـ نافذة الضوء ١٥١
بابٌ في الصدق مع النفس ١٥٤
غيرة منيرة ١٥٨
كتاب الحب ١٦٠
فقه الجمال ١٧٤
المصادر والمراجع ١٧٧
فهرس ١٧٧

تقديم مبرة الآل والأصحاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وإمام المرسلين، نبيِّنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغرّ الميامين، وبعد؛

فما زال بيت النبوة منبعًا للفضائل، وملجأً للقدوة، فهو معدِن الإيمان والخُلُق. وهذا الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ يلقي مزيدًا من الضوء على قمريْن بازغين من ذروة البيت النبوي، وهما السيدتان الصِّدّيقتان: فاطمة رضي الله عنها بنتُ رسول الله ﷺ وزوج عليٍّ رضي الله عنه، وعائشةُ رضي الله عنها زوجُ النبي ﷺ وأم المؤمنين بنتُ أبي بكر رضي الله عنه. فما أعظَمَهما مِن قدوتين كاملتيْن للصِّدق في جميع تجلياته: صِدق الإيمان، وصدق المحبّة، وصدق الاتّباع.

لا يقدِّم هذا الكتابُ سيرةً تفصيلية عن حياة السيدتين الكريمتين، فمع أهمية ذلك إلا أن كثيرًا من الكتابات قد توسَّعت في هذا المضمار. وبالمقابل يركّز الكتابُ على تجليات العظمة، ومخايل الكمال، التي اتسمت بها الشخصيتانِ الرائعتان، حتى تحقّقت فيهما معاني الصِّديقية، حيث الصِّديق وصفُ مبالغةٍ من الصِّدق، فهو كثير الصدق، الصدق في الإيمان، والصدق في الأقوال، والصدق في الأفعال. إنه تأمُّل عميق في استقراء أحداثٍ ومعانٍ جليلة في سيرة الصِّديقتين، تبيّن كيف عاشا الحبَّ لله ورسوله، وكيف انطبع ذلك الحبّ نورًا وبهاءً على سائر سجاياهما، وأفعالهما.

يقدِّم هذا الكتابُ قراءة علمية ووجدانية لهذه التجليات الصدِّيقية في

شخصية الصديقتين وحياتَيْهما، في نصّ أدبيّ راقٍ، محفوف بالحب، مشغوف بالتدبّر، مُتْرَعٍ بالبيان. وهو نمط من الكتابة الإبداعية العلمية ـ في آنٍ ـ الذي تُسهم به المبرةُ في إثراء المكتبة الإسلامية، بلونٍ من الكتابة يتوسّط بين البحث العلمي البحْت، والعمل الإبداعي الخالص. واستعانت المبرةُ في تحقيق الفكرة الرائعة لهذا الكتاب بقلمٍ معُجِب لأديبٍ مبرِّز وباحثٍ نابه، له إسهاماته العلمية والأدبية والإعلامية في الساحة الإسلامية، وهو الأستاذ وجدان العلي، فجاء النصُّ قطعةً جميلةً من الحب والصِّدق، فصدَّق الخُبرُ الخَبرَ، واستُغنِي بالعِيان عن الأثر.

لقد أسهمت المبرةُ إسهاماتٍ متواضعةً، نحسب أنّ لها أثرَها في المجاليْن المشار إليهما آنفًا: المجال البحثي والمجال الإبداعي، فقدمت عددًا من الأبحاث العلمية الرصينة، التاريخية والموضوعية، حول الآل والأصحاب، في مجالات وتخصصات كثيرة. وقدّمت أيضًا الأعمالَ الأدبية المتعلقة بالآل والأصحاب، شعرًا وبلاغةً وأدبًا وروايةً.

والمبرةُ إذ تقدِّم لقرَّائها هذا اللونَ الجميلَ، والنصَّ النفيس، والمعاني الرائعة، من حياة الصديقتين: فاطمة وعائشة ﵄، لَتَرْجُو أن تكون قد أضافت إلى مجالها الذي تخصصت فيه وأخلصت له؛ مزيدًا من الألَق والإبداع الذي يؤثّر في النفوس والأخلاق، ويُحيي هذه القدوات في حياة جميع المسلمين: طاقةَ حب، وإخلاص، وصدق.

مبرة الآل والأصحاب

الحمد لله الكريم الجميل، اصطفىٰ لعباده من عباده مناراتِ ضوءٍ ونجومَ هدايةٍ، يؤُمُّها الناس مهتدين بأنوراها، مقتفين لآثارها، فإذا هم علىٰ نهجٍ لاحبٍ[1]، وصراطٍ سَوِيٍّ موصولٍ بالغاية التي ارتضاها رب العالمين سبحانه وبحمده لعباده، وهي إقامة العبودية وعمارة الأرض بالنور الذي جاء به سيدنا أبو القاسم صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

ولقد تمت نعمة الله تعالىٰ علىٰ العالمين بهذا النورِ يحطِم أصفاد الظلمات في النفوس والعقول، ويبعث الأرواح من توابيت الغفلة وحَمْأَةِ الوثنية؛ ليعودَ إلىٰ هذا العالم إنسانُه العابِد، مُتطلعًا إلىٰ السماء، بعد الإخلاد الطويل قرونًا إلىٰ الأرض؛ ضَعْفِها وخرافتِها وضلالِها المتوارثِ البعيد!

ولقد حمل هذا النورَ في حياة النبي ﷺ وبعد التحاقه بأبي هو وأمي بالرفيق إلىٰ الأعلىٰ؛ أناسٌ كانوا بقيةَ الميراث النبوي وامتدادًا له في صحراء الوجود، يجددون بأخلاقهم وأعمالهم معالمَ الإنسان، ويعيدون إليه ملامحه التي هاجرت بعيدًا خلف غبار الوثنية الأولىٰ.

ولَنِعْمَ المثَلُ والقُدوةُ صحابة نبينا ﷺ، ومنهم آل بيته المباركون، فهم الذين

(١) الطريق اللاحب: الواضح.

أذهب الله عنهم كَدَرَ الرجس، وحلَّاهم ـ في غير عصمةٍ ـ بالطُّهْر ظاهرًا وباطنًا.

وقد ثبتَ من كلام الفقيه الربانيِّ أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قوله: "إنَّ الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلبَ محمدٍ ﷺ خيرَ قلوبِ العباد، فاصطَفَاهُ لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلبِ محمدٍ، فوجد قلوب أصحابِه خيرَ قلوبِ العباد، فجعلهم وزراءَ نَبِيِّه"(١).

وهذا الأثر الجليل يحدو المسلم في سيره إلىٰ الله علىٰ التماس تجليات ذلك الاصطفاء الإلهي، لا سيما في أَخَصِّ الناس بنبينا ﷺ من آل بيته، أعني ابنتَه المباركة أم أبيها؛ سيدةَ نساء العالمين فاطمة عليها السلام، وكذلك أحبهم إليه من زوجاته؛ الصِّدِّيقة المباركة أمنا المبجلة حبيبة سيدنا رسول الله ﷺ؛ ليكون مرآةً لما في نفس تينك المباركتين من صدق الإيمان، وشريف الخصال، ورفعة الدين، وشرف المعدن.

ونحن نقصِد إلىٰ دراسة تجليات ذلك الاصطفاء، ونَرْقُبُ آثارَه في الأقوال والأفعال، وهذا من أشرف ما يُعمِل الإنسان فيه قلمه وعقله وقلبه؛ فمدارسات سرائر الأخيار أعظَمُ وأجَلُّ من مجرد سرد سِيَرِهم.

فكان ضرورةً أن يكون للقلم هنا بيانٌ ينسج من آثار هذه الأرواح كسوة الحياة التي تُدفئ أرواحنا في شتاء هذا العالم، وتُدنِينا من هذا الرَّكْبِ الفريد السائر إلىٰ العرش تعبُّدًا وصِدْقًا.

وليس يُنهض القلبَ إلىٰ المعالي، ويُجَدِّدُ فيه معالمَ الإيمان، ونفحاتِ

(١) مسند الإمام أحمد ح ٣٦٠٠.

اليقين ؛ مثلُ متابعته آثار الصالحين ، واقتدائه عند اضطراب السُّبُل بِسَيْرِهِم .

وليس يخفىٰ علىٰ العاقل البصيرِ مِنَّةُ رب العالمين ـ سبحانه وبحمده ـ علىٰ عباده ، بجَعْله الإيمانَ حبيبًا إلىٰ النفوس ، ثم زادهم بفضله كرمًا وبِرًّا ، فجعله مُزَيَّنًا ؛ ليكون أرسخَ في النفوس ، وأسْلَمَ من عاديات الشُّبُهات ، ونَزْغِ الشهوات ؛ فإنَّ العبدَ إذا ذاق حلاوة الإيمان ، ونضَرَ به قلبه حُبًّا وشوقًا ؛ سارَ إلىٰ الله تعالىٰ سيرَ المحبِّ يحمِله شوقُه ، ويسبقه قلبُه ، فإذا حضره الأمر والنهي ، تلقَّاهما تلقِّيَ المطمئنِّ الفَرِحِ بربه ، سبحانه وبحمده .

وهذا هو جَذْر ما نقصِد إليه ونَؤُمُّه في هذه المدارسة ، بعيدًا عن رَهَجِ الخصومات ، وجفافِ التقْعيدِ ، مُسْتَعينًا بالله لائذًا به ، إنه هو الكريم الجميل .

المؤلف

كلمة في المنهج

ولا بد أن يعلم القارئ المبارك أنْ ليس قصدُ هذا الكتاب سردَ المناقب، ولا التعرُّض لسيرة المباركتين بِرَقْمِ الأحداثِ وسردِ التواريخِ على سبيل الإحاطة والجَمْعِ، فما لهذا الغرض وُضِع هذا الكتاب، **وإنما هو رصْدُ تجليَّاتِ الاصطفاء، وأسرارِ الرِّفعة، أصالةً**، وأما ما يعرض من ذِكْر المناقب وما يتعلق بها من فوائد وشواهد، فإنما هو تابع لذلك الأصل، وليس غايةً يحتشد لها الكتاب جمعًا وتفصيلًا.

وهذه القواعد الشريفة، وطرائِقُ النظر التي قام عليها الكتاب؛ جعلتها مَثَلًا يهدي الإنسان فيما لم نذكره من أحاديثَ وآثارٍ، فمن أحاط عِلْمًا بأصولِ إنسانٍ خُلُقًا وسُلوكًا ومنهجًا وطريقةً؛ نفعَهُ هذا في الفهْمِ عنه، وفِقْهِ فَعَالِه وأقواله، فيكون معه مثلُ الميزانِ الكاشفِ الذي يُحسن به النَّظرَ بِمَعْدَلَةٍ، في غير شَطَطٍ ولا غَفْلة.

وقد قال ابن مسعود أيضا رضي الله عنه: "من أراد العلم فَلْيُثَوِّر القرآن؛ فإنَّ فيه علمَ الأَوَّلِين والآخرين"[1].

والتثوير فيه مُفَاتَشةٌ وبحثٌ وأناةٌ، وجَوَلان نظرٍ، وإنعامُ فِكرٍ تدبُّرًا وتأمُّلًا، وهذا يورث القلب نورًا يتجدد، وإيمانًا يزداد بالمعاملةِ رسوخًا ويقينًا.

(١) عبد الله بن الإمام أحمد في "زوائد الزهد" (ص٢٢٩ رقم ٨٥٤). والطبراني في "الكبير" (٩/١٤٦ رقم ٨٦٦٦) بسند صحيح على شرط الشيخين

وتلك النفوس التي يعرض لها هذا الكتاب ـ بل وذلك الجيل المُبَجَّل من أصحاب نبينا ﷺ ؛ نفوسٌ ربَتْ في محضِن القرآن ، ونَمَتْ بين يديِ القلبِ الذي تلقَّىٰ القُرآنَ ، وكان خُلُقه القُرآن ﷺ ؛ وهذا موجبٌ عند النظر تثويرَ السنة والآثار أيضًا ، بالتدبر الذي لا تستَخِفُّه العَجَلة ، ولا تَحْجُبُه العادة والأقوال المكرورة ، وتلك هي غاية الفقيرِ الُمَصَنِّف في تأليفه .

ولما لاحت لي الغاية واتضح السبيلُ ؛ جعلت القلم يتْبَع الأحاديثَ والآثارَ ، بالتأنِّي المُتَأَمِّل ، والمُفَاتَشَةِ المُتَسَائلةِ ، وأنا أُصْغِي إلىٰ القلم وأكتب ، وما بيني وبينه إلا قلبي ، مُقتفيًا سَنَنَ الأئمة ، ﷺ ، مستعينًا بالله تعالىٰ ، راجيًا منه الهداية إلىٰ أصْوَبِ القولِ وأرضاهُ إليه سبحانه وبحمده .

ولستَ تجدُ في هذا الكتاب إلا ما صَحَّ من الأحاديث والآثار ، وما كانَ مُسْتَفِيضًا في كُتُب السُّنَّة والتراجِم والتواريخ ، مع تخريج ذلك كُلِّه ، ونِسبةِ الأقوالِ إلىٰ قائِليها ، في إيجازٍ لا يُثقِل الكتابَ بالحواشي ، أو يعوقُ القارئَ في سيره بين الصفحات .

ولقد أَعْمِدُ إلىٰ حديثٍ في الصحيحين ، فأُورِدُه بلفظِ غيرِهما لمعنىً زائد ، أو لفظٍ رأيتُه أَعْرَقَ في العربية ، وأبْيَنَ للمعنىٰ ، مع التنبيه علىٰ هذا ، فإذا مر بك حديث رأيتني فيه عدلت عن ذكر رواية الصحيح وهو فيه ؛ فاعلم أن هذا سبب فعلي ذلك ، حتىٰ لا تعجل بالاستدراك علىٰ أخيك .

ومتىٰ ما لاحتْ في أثناء ذلك فائدةٌ حَرَصْت علىٰ إيرادها ، في غير تَوَسُّع ، حُبًّا لمنفعةِ القارئ ، ورغبةً في إفادته ، وفِرارًا من مِلَالِه .

ولا يعْسُرُ عليك لفظٌ في روايةٍ؛ فإنَّ في معرفتِك به خيرًا كثيرًا، وثَرَاءً في لسانِك وذائِقتِك، واتساعا في فَهْمِك وبَصِيرتِك.

وأخيرا:

فهذا كتابٌ كنت أحمل ثِقَلَ أَدَائِه، لجلالةِ مَبَاحِثِه، وتَزَاحُمِ بَركَاتِه، فلربما جلست الساعات الطوال في الإصغاء إلىٰ معاني لفظة، والنظر فيما دلت عليه لا من جهة اللغة، ولكن من جهة كشفها عن أصلٍ مستقرٍّ في نفس إحدىٰ الصِّدِّيقتَيْن، ولعل هذا هو أكثر كتاب تعبت فيه.

ولولا فضل الله ورحمته ما سُطِرَ منه حَرفٌ، فالحمد لله رب العالمين علىٰ نَعْمائه بالعَون والمددِ، وتفضله بالتيسير والتمام.

ثم أذكر مُعْتَرِفًا بالجميل أخي وشيخي الذي أبىٰ عليَّ ذِكْرَ اسمِه فخَبَأْتُه حبًّا له خلف يدي الضارعة، وفي سجدات الدعاء، فقد وصلني بنُبْله، واحتَمَلني بِحِلْمه، ووسعني بفضل وُدِّه وإخَائِه الفريدِ، نَسَأَ الله في العافيةِ والبرَكَاتِ عُمُرَه، وجزاه عنِّي خيرَ الجزاء.

كتبه حامِدًا ربَّه لا إله إلا هو، مُصَلِّيًا علىٰ سَيِّد الأولين والآخرين محمد ﷺ:

وجدان العلي

مساء السبت ٢٠ ربيع الثاني من عام ١٤٤٣ هـ

الموافق ٢٦ من نوفمبر ٢٠٢١

الحب الأعلى

إذا كـان حُـبُّ الهـائمين مـن الـورىٰ ❁ بـ ليلىٰ وسَلْمَىٰ يسْلُبُ اللُّبَ والعَقْلا!
فمـاذا عسـىٰ أنْ يفعـلَ الهـائِمُ الـذي ❁ سرَىٰ قلبُه شَوْقًا إلىٰ الملأ الأعلىٰ!

من نعيم الآجلة المُعَجَّلِ أن يهبَ الله سبحانه وبحمده من كنوز بِرِّه، ومواهِبِ فَضْلِه قلبَ عبدِه كسوةَ الحب، والحب نِسَاجٌ[1] من نور، متىٰ بسط رداءَه علىٰ القلب نبَضَ به خَفْقًا وفِعلًا ومَنْطِقًا وبيانًا، وكان له تَرجُمانٌ يسكن العينَيْن، فكأنهما لسانٌ ناطق!

فللإطراقة والنظرة والعَبْرَة معانٍ أخرىٰ في معاجم المحبين:

والـنَّفسُ تعـرفُ فـي عينـيْ مُحَـدِّثِها ❁ إن كـان مـن حِزبهـا أو مِـن أعادِيهَـا
عينـاكِ قـد دلَّتـا عَيْنَـيَّ منـكِ علـىٰ ❁ أشـياءَ، لولاهمـا مـا كنـتُ أدريهـا!

ومتىٰ ارتفع الآدمي عن وهْدَةِ الطين، وسافَرَ في معارجِ الحب صِدْقًا وقَصْدا؛ كان شأنه مُفَارقًا لشأن الناس في كل شيءٍ، وسَبَقَ بذلك الحُبِّ سَبْقًا فريدًا بعيدًا!

وهذه الدنيا مَسَاحَة وَحشةٍ، لا يطيب السيرُ في شِعَابِها وأوديتها إلا بالحب المُعَلَّق بالعرش، يعلو بصاحبه ويعينه علىٰ الزهد في الدنيا، واتخاذها بوابةً

(١) جمع نسيج.

للآخرة، فعمره ميدان عبادةٍ، وأيامه مِحْرابُ صلاة، وساعاتُه عَمَارةٌ في الأرض ونفعٌ للخلق، فهو في شُغُله العُلْوي، مُعْرِضٌ عن ضَجِيجِ الْمُتَفَانين على الدنيا، المُتَنافسين على حُطَامِها، وما كان ليكون كذلك أبدًا لولا الحب!

وهذا الذي ذكرته لك على إيجازه، تجده مُفَصَّلًا في حياة الصديقتين النبويتين ﵄، وقد أحببت أن يكون بوابة هذا السِّفْر حديثَ الحب؛ لأنه أصلُ كُلِّ خير، وبوابةُ كلِّ نور، ومتى استقامت أنواره في القَلْب استقامَتْ له سائر المقامات الإيمانية؛ لأنها ثَمَرةُ غَرْسه الذي استقر في حَبَّة القلب، ومتى استقام الأصل استقامَ ظِلُّه.

وهذا أوان الكشف عن ذلك:

شواهِدُ الحب

وأول ما أجعله إماما لهذه الشواهد هو آخر المشاهد بين النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم وبين بضعته الطاهرة فاطمة عليها السلام.

كانت فاطمة عليها السلام مثالًا حيًّا لمعنىٰ الصوم عن الدنيا، والسفرِ المُرتحَلِ إلىٰ الآخرة، ولا أدلَّ علىٰ ذلك من موقفها عليها السلام في آخر أيامه ﷺ حين "يُبَشِّرُها" أنها تكون أول أهله لحوقًا به عليه صلوات الله وسلامه.

ولفظة "البشرىٰ" هنا لفظة فريدة تتوهج! فأيُّ بشارةٍ هي تلك البشارةُ التي تُخبر الإنسان بدنوِّ ارتحاله، وانطواء كتاب عُمُرِه؟!

وهو خبر لو لَقِفَه[1] شيخٌ ضارب في السن لكان مُفِجعا، فكيف لإنسانة في غَضَارة شبابها، تحمل حقيبةَ عمر صغيرةً لا تسع إلا خمسةً وعشرين عامًا!

والإنسان فُطِر علىٰ حب الحياة، والتشَبُّث بأسبابها، يحبها طويلةً وإن مسه الضجر والسأم، كما قال زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ❦ ثمانين حولًا ــ لا أبا لك ــ يسأمِ!

فقد جرىٰ كلامه علىٰ عادة الإنسان يتضجر مما هو دَنِفٌ[2] به غارق في محبته! وإنما قال ما قال تنفُّسًا ببعض الألم من تَنُّور صدره، فهو قول ذاهبٌ، لا

(١) لَقِفَ: كسَمِعَ، وزنًا ومعنىٰ، وفيه معنىٰ الأخذ السريع.

(٢) دَنِفَ بالشيء: لازَمَه.

جذور له في الحقيقة!

وقد قصدت إلىٰ الحقيقة صافيةً من شوائب الكذب أمنا الصديقة ﵂ وهي تقول للنبي ﷺ: وكلنا يكره الموت!

بل قال رب العالمين سبحانه وبحمده في كتابه المجيد: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، وقال سبحانه وبحمده في الحديث الإلهي، حديث الولاية، عن العبد المؤمن: "يكره الموت، وأكره مساءته".

فذلك الذي تناسل من أقلام الشعراء سراب متأنق يغدو ويروح في حُلَلِ الكذب الفني وبحبوحة المجاز!

لكن أين ذلك السراب الشاعر المتأنق من معدن الصدق في مشهد الموت الذي يُخبر وحيًا لا ظنا، ويتلقاه الإنسان كِفاحًا من أصدق الخلق ﷺ، في سر خافت لا يطالعه الناس بلا واسطة؟!

ثم.. ثم هو من أبٍ هو من هو ﷺ، ثم هو من حبيبٍ ملأ حُبُّه أعصابَ ابنتِه وخفقاتِها، ثم هو بقيةُ أهلها وأنفاسُ رَوْحها ورُوحِها!

ولكنه يعلم، بأبي هو وأمي، مَنْ بَضْعَتُه شرفًا ومعدنًا ونُورًا وحُبًّا لله ولرسوله ﷺ، قد نشأتْ في ظلال النور والوحي، وفي محضن الصدق مع أمها الصديقة الكبرىٰ أمنا خديجة ﵂، فليس في قلبها موضع خردلة تجد الدنيا لها فيه متكأ!

هي ابنة من قال ﷺ: مالي وللدنيا؟!

فهو ليس علىٰ حد الزهد بل أعلىٰ، هذا عبدٌ لا خُطُور[1] لشيء من الدنيا

(١) مصدر خطر يخطر.

في نفسه الشريفة المباركة! بأبي هو وأمي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

فتتلقىٰ هذا الذي تسمعه من أصدق الخلق ﷺ تلقي البشارة تغمر روحها بالفرح وقلبها بالسعادة وتكسو وجهها بالضحك!

وهذا سر يبعث الإنسان علىٰ النظر في قدر الإيمان الذي يطوي آلام الإنسان ومخاوفه، ويمسح بأنواره هواجس الإنسان وارتجافات جِبِلَّتِه أمام خبر الموت!

ولكن هكذا الآخرة في قلوب الصديقين! ليستْ زمنًا مُؤَجَّلًا ينتظر هنالك وراءَ سُور العالم، بل هي عقيدةٌ تَحيىٰ في قلبه ويَحْيَىٰ بها، فلم تزل تربو في نفسه، فتكسوه بهدأة السكينة، ثقةً بالله تعالىٰ وشوقًا إليه، وإلىٰ كرامته التي خبأها لعباده في الآخرة.

ثم في تَلَقِّي فاطمة عليها السلام هذا الخبر وفيه ما فيه لَأْوَاء[1] الفراق ولواعج[2] الفقد ورنة الأسىٰ، ما يدلك علىٰ أنها فُطِمت عن لُعَاعَة[3] الدنيا وغبار الفانية، فهي علىٰ صراط الزهد التام فيها.

وأيضًا.. فإن هذا التَّلَقِّي تَرجمانُ شوقٍ يقبس من نور كلماته ﷺ: «وأسألك الشوق إلىٰ لقائك»[4]، قبسًا حاديًا هاديًا في دروب الحياة وشَعَثِ سفر الدنيا.

وتلك لحظة لا تجمُّلَ فيها، فلو لم يكن الصدق هنالك سيدًا ما ابتهجت النفس ابتهاجًا ظاهرا يملأ الوجه ضحكا!

(١) اللأواء: الشِّدَّة.
(٢) أي الآلام والشِّدَّة.
(٣) المراد: البقية اليسيرة.
(٤) صحيح ابن حبان ح (٥٠٩).

والعين مرآة الروح، والوجه ناصية القلب، وليس يغيب عنك ما قاله العبد الصالح عبد الله بن سَلَام حين طالع قسمات وجه نبينا ﷺ فوجدها دلائل نور على تمام صدقه، فقال: "فلما رأيت وجهه ﷺ عرفتُ أنه ليس بوجه كذَّاب"[1].

وقد قال رب العالمين سبحانه وبحمده عن جرار الخزف من المنافقين: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩].

فإذا علمتَ هذا الأصل، وعرفت جِبلَّة الإنسان، وما فُطِر عليه من حب الحياة، وأنه لا يقتحم عَرَصاتِ الآخرة بخزانةٍ مُفْلِسة؛ علمتَ شرفَ تلك النفس الصديقية المباركة لسيدة نساء العالمين عليها السلام.

فكيف ربَتْ تلك النَّفس، وما جُذور روحِها التي أثمرتْ هذه البركةَ المطمئنةَ والسكينةَ الوارفةَ، والإيمانَ الناضر الذي لا يتلعثم؟

(١) الترمذي (٢٤٥٨).

جذور النور

ربتْ الصِّدِّيقتان في بيتين معموريْن بالنور، محفوفين بالإيمان، يغدو فيهما ويروح أنفاس الوحي، وزجل التسبيح.

أما الصديقة النبوية فاطمة عليها السلام، فليس يطيق القلم صيد الحروف المبينة عن ذلك الشرف الذي لا يُلحق، ولكن لا بد للإنسان من بيان، والله هو الغفور الرحيم.

فقد نشأت في ظلال الرسالة ومعدن الوحي، فأما الوالد فهو خير العالمين وسيد المرسلين وصفوة الله تعالىٰ من خلقه، وهذا حسبنا في الكلام عنه ﷺ، إذ لا يسع الكتابَ كلَّه ولا العمرَ كُلَّه الكلامُ عن خصلة من خصاله ﷺ.

۞ الظلُّ الوارف

ولقد أنعم الله عليه بزوجٍ كانت ظلًّا وارفًا[1] يندىٰ بالسكينة والحنان، والعطاء والعقل، والنُّصرة التي لا يداخلها ريبة قط، وهي أمنا الصديقة الكبرىٰ خديجة رضي الله عنها.

والنظر في مرآة الأم يكون نافذةً لا تكذب لمطالعة حال الأبناء.

وقد كسا الله أمنا خديجة رضي الله عنها بخصال الشرف، وعمر باطنها بخِلال السمو، فكانت فذة فريدة في شأنها كله، حتىٰ قال عنها أصدق الخلق ﷺ: ما أبدلني الله

(١) الوارف: الواسع الممتدّ.

خيرا منها[1]، فلا جرم أن قال: «إني قد رُزقتُ حُبَّها»[2].

وقد كانت هذه الأم المباركة رفيعة القدر في قومها، يحرص الأشراف والسادة على أن يتقدموا لها، وينالوا شرف الزواج منها، ولكن الله تعالى كان اصطفاها لعبده ورسوله ﷺ لكرامتها عنده سبحانه وبحمده.

يقول ابن هشام رحمه الله: "وكانت خديجة امرأةً حازمةً شريفةً لبيبةً، مع ما أراد الله بها من كرامته"[3].

ثم قال: "وكانت خديجةُ يومئذٍ أَوسَطَ نساء قريشٍ نسبًا، وأعظمَهنّ شَرَفًا، وأكثرَهنّ مالًا؛ كلُّ **قومها كان حَرِيصًا على ذلك مِنها** ـ أي الزّواج ـ **لو يَقدِر عليه**".

وكانت لشرفها الباذخ وخصال الخير فيها تُدعى في الجاهلية بـ الطاهرة رضي الله عنها.

وإذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه، فمع أنها تزوجت من قبل سيدنا رسول الله ﷺ مرتين، فكانت تحت أبي هالة بن زُرارة التميمي، ثم عَتِيق بن عائذ، ثم أكرمها الله تعالى بالرفعة التي لا تُطَاوَلُ والشرفِ الذي لا يُلحَق فاصطفاها لنبيه ﷺ.

وكان يتَّجِر سيدي ﷺ في مالها، وكانت ترى منه شمائل النور والأخلاق الفذة، فأرسلت تخطبه لنفسها ﷺ، وهذا من شرف نفسها وطهارة بصيرتها، ومِن قبلُ هي سابقةُ الخير التي كتبها لها رب العالمين سبحانه وبحمده: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) البخاري (٣٦٠٧).
(٢) صحيح مسلم ح (٢٤٣٥).
(٣) السيرة (١/١٨٩).

سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

فتزوجها رسول الله ﷺ وهي ابنة ثمان وعشرين سنة.

وقد أخبر ابن عبّاس - رضي الله عنهما - أن النبيّ ﷺ تزوّج خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - **وهي ابنة ثمانٍ وعشرين سنة**[1].

ولم يتزوَّج ﷺ غيرَها معها في حياتها، وكان قد عاش معها ضِعفَ ما عاشَه مع غيرها.

وليس من وُكدي[2] أن أستوعب الكلام عن أمنا الصديقة خديجة رضي الله عنها وشرفها وفضلها ورفعتها، فهذا يكون له كتاب مفرد، لكني هنا أذكر شيئا من خصالها التي وَجَدَتْ ولا بد أصداءها في قلب ذريتها المباركة ومنهم البضعة الطاهرة فاطمة عليها السلام.

فقد عُرِفت كما علمت في الجاهلية بالطاهرة، وكانت تتلألؤ فيها مجالي الشرف والحزم والعقل والحكمة، وقد تمم الله سبحانه وبحمده لها الشرف بصحبة النبي ﷺ، واصطفائها زوجًا له ﷺ.

والمعدِنُ الشريف يزيده الدين جِلاءً ونَفَاسة، كما قال النبي ﷺ: تجد الناس معادن كمعادن الذهب والفضة؛ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقُهُوا.

---

(١) في الطبقات (٨/١٦). وأورد بعدها تعليق الواقدي وأن عمرها كان أربعين.. ولكن ما أورده قبل أرجح والله أعلم.

(٢) همي وشغلي.

فعرضت على النبي ـ ﷺ ـ أن يخرج في مالها إلى الشام، فخرج مع مولاها ميسرة.

فلما قدم، باعت خديجة ما جاء به، فأَضْعَفَ، فرَغِبَت فيه، فعَرَضَتْ نفسها عليه، فتزوجها، وأصدقها عشرين بَكْرةً[1].

وهي مع هذا المعدن النفيس، كانت اصطفاء من الله تعالى لنبيه ﷺ، ولله تعالى نظرٌ في قلوب عباده يصطفي منها الأطهر والأزكى، كما قال الفقيه الرباني الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَاخْتَارَ مُحَمَّدًا ﷺ فَبَعَثَهُ إِلَى خَلْقِهِ، فَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ وَانْتَخَبَهُ بِعِلْمِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ بَعْدَهُ فَاخْتَارَ اللهُ لَهُ أَصْحَابَهُ، فَجَعَلَهُمْ أَنْصَارَ دِينِهِ وَوُزَرَاءَ نَبِيِّهِ ﷺ[2].

والاصطفاء دلالة الصفاء، والنبي ﷺ أكرم الخلق على ربه، ولا يصطفي له إلا أكرم الخلق عنده، فقد اصطفى لتنزل الوحي على النبي ﷺ الروح الأمين جبريل عليه السلام، واصطفاه هو من الناس، واصطفى له أجمل الأسماء، وأكملَ الصفات ظاهرًا وباطنًا، وجعله سيِّدَ ولدِ آدم، وحاملَ لواء الحمْدِ يوم القيامة، ورأسَ الشفعاء من النبيين، عليهم صلوات الله وسلامه.

وإذا كان هذا أصلًا نؤمن به ونعتقده لا ريب فيه؛ فاعلم أن مَن يصطفيها الله تعالى زوجًا لأحبِّ الخلق إليه ﷺ، في أصعب المواقف، يوم يقف النبي ﷺ مُستَعْلِنًا بالنِّذارة والبِشارة، يدعو إلى الحق يطأُ به ميراث الجاهلية في النفوس، ويهدم صروح الباطل التي شادها كهنة الشرك ودهاقين الوثنية؛ لابد

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي (٦/٢٥).
(٢) تقدم في صدر الكتاب.

وأن تكون من تصحبه على نسق فريد خاص، لا يقبل العثراتِ البشرية، ترددا أو خِذلانًا، أو تكاسلا عن النصرة والمؤازرة.

ولقد والله قامت أمنا خديجة ﵂ بهذا قيامًا بقي أثره أولا في قلبه ﷺ لا يبلى، ثم بقي من بعدُ في التاريخ مثالًا للهدأة المؤمنة حين تكون زوجةً تحمل عنه آلام الدعوة وجراحات الطريق، وظلًّا يأوي إليه من رمضاء التكذيب وهاجرة المحادة والمعاندة.

وكانت تفسيرًا حيا لمعنى **النُّصرة**، فكانت أولَ مَن آمَنَ به وصدَّقه، وقام معه وثبَّتَه، وهي التي جعلها الله رب العالمين السكينةَ التي تلَقَّتِ النبيَّ ﷺ عند مآبه من الغار ترجُف بوادره وترتعد سواكنه ﷺ، فآوته إليها وبثت في قلبه المبارك أنوار السكينة، وقالت كلمات الصدق الخالدة: كلا والله لا يخزيك الله أبدًا إنك لتحمل الكَلَّ، وتَقْرِي الضيف، وتُكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتُعِين على نوائب الدهر".

ثم قامت معه إلى ورقة بن نوفل، تثبيتًا وتأييدًا، ثم كانت من ورائه ملاذًا للاطمئنان، وموئلا للإيمان.

ثم نصرته بمالها، وبذلته له ﷺ إيمانا وحبا، وكان ثمرة هذا الزواج المبارك ذرية الخير من آل بيت رسول الله ﷺ، فكل أولاده منها إلا إبراهيم ﵇.

فأولاده منها: القاسم، والطيب، والطاهر، وقد ماتوا رُضَّعًا، ورُقَيَّة، وزينب، وأم كُلثوم، وفاطمة، ﵃.

وقد كانت عِماد البيت النبوي ﵂، وعَصَبَ الحياة فيه بعد رسول الله ﷺ.

وتلك خِصِّيصَةٌ انفردت بها أمنا خديجة ﵂، فقد كانت معه منذ الخطوة الأولىٰ، وفي الزمان الحِرج الذي ترتجف فيه النفوس وتتلوىٰ فيه الأفئدة من صليل الأهوال، ورهق الأضداد، فإن لم يكن من في بيت النبوة علىٰ تمام المواتاة، وكمال المواساة؛ كان سيكون الابتلاء علىٰ قلبه المبارك ﷺ أشد.

ولذلك حمل في قلبه نور الفلق الأولِ لأمنا خديجة لا يخفت بوفائه وضيائه في قلبه المبارك ﷺ أبدا.

وقد لَحِظَتْ أُمنا الصِّدَّيقة عائشة ﵂ هذا، وقالت كلمةً مبينةً فياضة بالمعاني: كان رسول الله ﷺ إذا كان خديجة **لم يكد يسأم من ثناء عليها، واستغفار لها**، فذكرها يومًا، فاحتملتني الغيرةُ، فقلت: لقد عوضك الله من كبيرة السن، فرأيته غضب غضبا أُسْقِطْتُ في خَلَدي[1]، وقلت في نفسي: اللهم إنك إن أذهبتَ غضَب رسولك عني لم أَعُدْ إلىٰ ذكرها بسوء!

فلما رأىٰ النبي ﷺ ما لقيتُ[2] قال: «كيف قلتِ! والله لقد آمنتْ بي إذ كفرَ بي الناس، وآوتْنِي إذ رفضني الناس، وصدَّقَتْني إذْ كَذَبَنِي الناس، ورُزِقْتُ منها الولد، وحُرِمْتُمُوه مني». قالت: فغدا وراح عليَّ بها شهرا[3].

وما كان قيامه ﷺ شهرا كَرِيتًا[4] يعدد مناقب أمنا خديجة ويذكر الثناء

(١) يعني ركبها خوف مربك خشية من غضب رسول الله ﷺ.

(٢) أي من الهم والخوف.

(٣) حديث حسن وهو مستفيض، وهذه رواية الدولابي في الذرية الطاهرة (١٣٨) وانظر تخريجه هنالك..

(٤) أي تاما غير منقوص.

عليها ، إلا قياما بحق الوفاء لها ، وصيانةً لها من عاديات الغيرة التي قد تلج قلب أمنا الصديقة عائشة ﵂.

وتَكْرار النبي ﷺ هذا مع الصديقة عائشة ﵂ خاصةً له دلالة أخرىٰ فوق الثناء المجرد ؛ لأنها كانت حبيبته وأخص الناس به ، فإيراد هذا عليها وترداده لا يقوم به إلا أصفىٰ الناس قلبًا ، وأعظمهم وفاءً ؛ فلم تحمله علىٰ هذا الثناء غضبةٌ عابرةٌ ، بل وفاءٌ راسخٌ ، وهو سيِّدُ مَن يحمل الوفاء في قلبه لأدنىٰ الناس إحسانًا ، فكيف بالصديقة خديجة التي آزرته وحاطته وظللته بسكينة وارفة مطمئنة ، في هاجرة التكذيب وسعير التهديد!

وما عُرِف عنها قطُّ مخالفةٌ له ﷺ ، ولا مجادلة ، بل كان البيت النبوي لؤلؤة تبرق بالسكينة ونور الإيمان والإخبات العظيم يفوح من قلبها وفعالها وأقوالها ﵂.

ولذلك جاءتها البشارة من رب العالمين ففي الصحيحين عن أبي هريرة يقول: أتىٰ جبريل النبي ﷺ فقال: **هذه خديجة ، أتتك معها إناء فيه إدامُ طعام أو شراب ، فإذا هي أتَتْك فاقْرأ** ﷺ **من رَبِّها ومني ، وبَشِّرها ببيتٍ في الجنة من قصب ، لا صَخَب فيه ولا نَصَب**(١).

والقصَبُ هو اللؤلؤ ، واللؤلؤ فيه صفاء ونورانية ، وكذلك كانت أمنا ﵂ ، نبع صفاء لا كدر فيه ، ونور إيمان لا ظلمة شك فيه!

ولأنها جعلت من بيتها مهاد سكينة لا صخب فيه ولا إعنات ، كانت العاقبة هنالك صدىٰ النور هنا! ولا جرم ؛ فإنها من كوامل النساء ، ومن سادات نساء

(١) متفق عليه البخاري ح (١٧٩٢) ، ومسلم (٢٤٣٢).

العالمين.

ففي صحيح مسلم عن علي ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها خديجةُ بنت خويلد، وخير نسائها مريمُ بنت عمران».

وقد كان وجودها وجودَ اليقين لا يخدش بهاءَه شكٌّ، ومثالَ الثبات الذي لا يرتجف أمام تكذيب أو إعنات!

وإني ليعجبني ما قاله الرافعي ﷺ عن أمنا خديجة ﷺ، فعلِق بذهني مذ كنت غلامًا صغيرا لنفاذه وعبقريته، فيقول ﷺ[1]: "أما خديجة زوج النبي ﷺ فكانت في هذه المحنة قلبا مع قلبه العظيم، وكانت لنفسه كقوله «نعم» للكلمة الصادقة التي يقول لها كل الناس «لا»!

وما زالت المرأة الكاملة المحبوبة هي التي تعطي الرجل ما نقص من معاني الحياة، وتلد له المسراتِ من عواطفها كما تلد من أحشائها!

فالوجود يعمل بها عملين عظيمين: أحدهما زيادة الحياة في الأجسام، والآخر إتمام نقصها في المعاني".

فإذا طالعت هذا الأفق السامي، عرفت أصداءه وثماره وآثاره في نفس فاطمة ﷺ، وهي تنبت في محضن الوحي، وفي أنوار الرسالة، لأب هو سيد الأولين والآخرين، وأم كاملة فريدةٍ من سيدات نساء العالمين!

(١) في وحي القلم من مقالة فلسفة قصة.

أمَّا أُمُّنا الصِّدِّيقة المباركة فهي ابنة الصِّدِّيق والصَّدِيق؛ الحبِ الذي كان رجلا، والصدق الذي كان إيمانا، والقلب الذي لم يفارق سجدة العبودية حبا وصدقًا مذ دخل نورُ الإسلام نورَ قلبه!

فلم تَشَمَّ الصِّدِّيقة في بيت الصِّدِّيق ﷺ لُوثةَ وثنيةٍ، بل أطلت علىٰ الحياة وبيتهم عامرٌ بأنوار الإيمان؛ فإنه بيت رأس السابقين الأولين ﷺ.

فقد كان بيتا مُسلِمًا كُلُّه، يغشاه النبي ﷺ كل يوم بكرة وعَشِيًّا، وتتهادىٰ آيات الذكر الحكيم علىٰ لسان قَيِّمه الذي يرعاه، موصولةً بقلب أسيف، وعين دامعة.

وتبين هذا أمنا عائشة ﷺ فتقول: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، طَرَفَيِ النَّهَارِ: بُكْرَةً وَعَشِيَّةً ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ، فَابْتَنَىٰ مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ وَيَقْرَأُ القُرْآنَ، فَيَقِفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ المُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً، لَا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ القُرْآن»[1].

فنشأت أمنا عائشة ﷺ موصولةً بالخير، فوالدها الصديق ﷺ، وهو من هو فضلا وسبقا ومكانة سامقة لا تلحق، وأمها أم رومان ﷺ، وأختها ذات النطاقين أسماء ﷺ، وجدها أبو قحافة لم يفته الخير؛ إذ لحق بركب الهداية فأسلم عام الفتح، فتمت النعمة وعمت بَركة الهداية بيت الصديق ﷺ.

وفي هذا البيت الذي كان موئلا[2] للإيمان والنصرة والإخبات الخاشع

(١) البخاري ح (٤٧٦).
(٢) الموئل: الملجأ.

والقراءة الدامعة، والنبي ﷺ يتعاهدهم بالزيارة والمجالسة، فينالهم ما ينالهم من بركات الزيارة وأنوار النبوة.

فرَبَتْ هنالك أمنا الصديقة ﵂، تهتدي بنور الوحي، وتستقي من نبع الصديقية، سامية نبيلة، تسمع الخير وتعيه، وتحرص عليه وتقصد إليه؛ لِتُهَيَّأ لتلك المنزلة الباذخة؛ أن تكون زوجًا لأعظم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وأُمًّا للمؤمنين.

مع ما كان فيها ﵂ من مَخَايِلِ النَّجابَةِ والعَبقريَّة والذَّكَاء، والحرص على العلم وتَحَفُّظِه، حتى كانت أعلمَ نساءِ الأمة مُطلقًا، مع فَرَادتها في أبواب كثيرةٍ من العبادة والزهدِ والجُود والمعرفةِ بالطِّبِّ والأنساب والعربية، حتى كانت مَرْجِعًا للأمة يعتصمون به عند الاختلاف، ويستفتونها إذا استَبْهَمَتِ المسائل، ﵂. ولهذا حديثٌ يأتي بعد قليل إن شاء الله.

معالم الاصطفاء

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٨].

لم يزل فيَّ سؤال مُعَلَّقٌ على جدار الذاكرة كلما طالعت أو سمعت حديثا يذكر فضائل فاطمة عليها السلام أو أمِّنا عائشةَ رضي الله عنها: **ما الذي كان في هذه القلوب من الخير والهدى حتى تنال تلك المنازل العليا وتُحَلَّى بتلك المناقب العظيمة الشريفة، في سن صغيرة لم تتسع في ميدان الوجود!**

هل سألت نفسك يومًا: ما الذي كانت عليه فاطمة عليها السلام لتكون سيدةَ نساء العالمين وقد كان عمرها كله خمسةً وعشرين عامًا أو ثمانية وعشرين على قول آخر؟

هل انبعث في أودية نفسك سؤال: ما الذي كانت عليه أمنا عائشة رضي الله عنها ليتنزل فيها وحيٌ يُتلى في محاريب المسلمين إلى يوم القيامة، ناطقًا بجلالة قدرها ورفعة شأنها عند رب العالمين، وقد كان لها من العمر يوم نزلت براءتها أربعة عشر عاما؟

هذه الأسئلة حملتني على الجلوس طويلا مستعينا بالله تعالى أن يهديني إلى منازل النور ومعالم الاصطفاء في تلك النفوس الشريفة المباركة.

۞ مدارسة المناقب

إنَّ مُدَارسة المناقب ليست سبيلًا للمدح والتزكية وتِبيانِ القَدْرِ والمنزلة، وحسب، بل هي أصالةً لتزكية النفس، ومشاهدَةِ المِنَنِ الإلٰهِيَّة، ومُطالَعَةِ سَرَائر الأسرار التي تكون تَجَلِّيًا لآيات الاصطفاء في أقوال الإنسان وأفعاله، وشمائله وخِصَاله.

فلو أنك طالعتَ الشمس والقمر، فسيكون بيِّنًا أنَّ لكلٍّ منهما خصائِصَه الفريدةَ التي تَمِيزُه عن الآخر، وإلا بَطَل معنىٰ التفرُّد هنا!

وكذلك قضىٰ رب العالمين سبحانه وبحمده أنَّ للسعادة السابقةِ آثارَها الباديَةَ في أخلاق الإنسانِ وأفعاله وسلوكه، فلا يشتَبِهُ عند بصرٍ صحيحٍ وقلب سليم أنَّ لهذا الإنسان تميُّزًا عن غيره، وأنَّ دلائلَ العناية لائحةٌ في أفعالهِ، واضحةٌ في شمائله وخصاله.

وميراث هذه الأمة في كَتْبِ[1] التواريخ وتصنيف الطبقات، وحفظ شمائل الصالحين وأخبارهم بالأسانيد؛ ميراثٌ عظيمٌ ليس لأمةٍ من الأمم، وهو من خصائص هذه الأمة، ومن عَلَائم الاصطفاء الإلهيِّ.

فهذا بيانٌ لبعض ما في نفس الصديقتين من خِصال وخِلالٍ تدلُّ علىٰ ما وراء ذلك من الرِّفْعَة والجَلال، رضي الله عنهما.

(١) هذا مصدر كتب يكتب، وليس جمع كتاب.

النور الأول

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر: ٣].

ربنا سبحانه وبحمده هو الحكيم العليم، وهو أعلم تبارك اسمه بسرائر عباده ومواضع الاصطفاء، وأول ما يستفتح به الإنسان النظرَ في فضائل فاطمة عليها السلام أن الله تعالىٰ اختصها بمنقبةٍ لم يشركها فيها أحد من الذرية المباركة من بنات رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم، وهو أن الله تعالىٰ استبقىٰ مدد النور بنسب الطهر لنبينا ﷺ من قِبل فاطمة عليها السلام وحدها.

فلم يكن للطاهرات ـ رُقَيَّة وأمِّ كلثوم وزينبَ عليهن السلام ـ نسلٌ باقٍ بعدهن، وإنما خَصَّ الله فاطمةَ مِن بينهن بهذا الشرف العظيم، وتلك منقبةٌ شريفةٌ لأمور كثيرة:

أولًا: أنه تجلي منة الله تعالىٰ على النبي ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر: ١-٣].

والنبي ﷺ صَفْوَة الخَلْقِ، وخَلِيلُ ربِّ العالمين، سبحانه وبحمده، فليس يصطَفِي الله تعالىٰ استبقاءَ نَسَبِه الشَّرِيفِ، وذُرِّيَتِه الطاهرةِ إلا لمَنْ كانت له الرُّتبةُ الأعلىٰ عند ربه سبحانه وبحمده.

وقد كان ذلك لفاطمةَ عليها السلام، فاختصها الله بكمال ذلك السُّؤْدُد بِجَعْلِها نَبْعَ

الميراثِ الباقي مِن ذُرِّيَّتِه المباركةِ الطَّيِّبة ﷺ.

ثانيًا: أن نسبه الشريف أشرف الأنساب ﷺ، وقد قال: «كل سبب ونسب منقطعٌ يوم القيامة إلا سببي ونسبي»(١).

وقال ﷺ(٢): «ما بَالُ رجالٍ يقولون: إنَّ رَحِمَ رسول الله ﷺ لا تنفعُ قومَه؟! بلىٰ والله! إن رحمي موصولةٌ في الدنيا والآخرة، وإني أيها الناس فَرَطٌ لكم علىٰ الحوض...» الحديث.

وهذا الشرف هو الذي بعث الفاروق رضي الله عنه في طلب مصاهرة أبي تراب عليه السلام.

ففي مصنف عبد الرزاق قال: عن معمر، عن أيوب، عن عكرمة قال: تزوج عمر بن الخطاب أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وهي جارية تلعب مع الجواري، فجاء إلىٰ أصحابه فدعوا له بالبركة، فقال: إني لم أتزوج من نشاطٍ بي، ولكن سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ كل سبب ونسب منقطعٌ يومَ القيامة إلا سببي ونسبي»، فأحببتُ أن يكون بيني وبين نبي الله ﷺ سببٌ ونسبٌ(٣).

قال عبد الرزاق: "وأم كلثوم من فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ، ودخل عليها عمر، وأولد منها غُلامًا، يقال له: زيد".

ثالثا: أن هذه الخِصِّيصَة ارتفعتْ في مدارج السمو عاليا؛ لأنها كانت ترجمةً حيةً لقوله سبحانه وبحمده: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

(١) الطبراني في الأوسط ح (٥٦٠٦).
(٢) في المسند ح ١١١٣٨ بسند صحيح لغيره.
(٣) مصنف عبد الرزاق ح (١١٠٩٠).

فقد كانت قُرَّة عينه بالذرية الصالحة الطيبة المباركة من السادة الأماجد آل بيت رسول الله ﷺ من ذرية فاطمة عليها السلام وحدها.

۞ الاختصاص بالريحانتين

فالحسن والحسين الشهيدان السَّيِّدان والسِّبْطَان المُباركان، حبيبا رسول الله ﷺ، من بضعته الطاهرة فاطمة عليها السلام.

وقد قال النبي ﷺ: «اللهم إني أحبهما، فأحِبَّهما وأَحِبَّ من يحبهما»[1]، ونحن نُشهد الله تعالىٰ وملائكته علىٰ حب السِّبْطَيْنِ الحسن والحسين وتَوَلِّيهما عليهما السلام، والمنَّة لله تعالىٰ.

وهما سيدا شباب أهل الجنة بلا مِرْية، وريحانَتَا رسول الله ﷺ.

ففي المسند[2] عن حذيفة قال: سألتني أمي: منذ متىٰ عهدك بالنبي ﷺ؟ قال: فقلت لها: منذ كذا وكذا، قال: فنالت مني وسَبَّتْني، قال: فقلت لها: دعيني، فإني آتي النبي ﷺ فأصلي معه المغرب، ثم لا أدعه حتىٰ يستغفر لي ولك، قال: فأتيت النبي ﷺ فصليت معه المغرب، فصلىٰ النبي ﷺ إلىٰ العشاء، ثم انفَتَل فتبعته، فعرض له عَارِضٌ فناجاه، ثم ذهب فاتَّبَعْتُه، فسمع صوتي فقال: «من هذا؟»، فقلت: حذيفة، قال: «ما لك؟»، فحدَّثْتُه بالأمر، فقال: «غفر الله لك ولأمك»، ثم قال: «أما رأيتَ العارِضَ الذي عَرَضَ لي قُبَيْلُ؟»، قال: قلتُ: بلىٰ،

(١) في المسند ح (٢٣١٨٢).
(٢) المسند ح (٢٣٣٢٩).

قال: «فهو مَلَكٌ من الملائكة لم يَهْبِطِ الأرضَ قَطُّ قبلَ هذه الليلةِ، استأذَن ربَّه أنْ يُسَلِّم عليَّ، ويُبَشِّرَني أنَّ الحسنَ والحسينَ سَيِّدا شبابِ أهلِ الجنَّة، وأنَّ فاطمةَ سيدةُ نساءِ أهلِ الجَنَّة».

وفي رواية بَيَّنَ أنَّ جبريل عليه السلام بَشَّرَه، فقال، كما في المسند[1]: أتيت النبي ﷺ فصليتُ معه الظُّهر والعصر، والمغرب والعشاء، ثم تَبِعتُه وهو يريد يدخل بعض حُجَرِه، فقام وأنا خلفَه كأنه يكلم أحدا، قال: ثم قال: «من هذا؟»، قلتُ: حذيفة، قال: «أتدري من كان معي؟»، قلت: لا.

قال: «فإن جبريل جاء يبشرني أن الحسن والحسين سيِّدَا شبابِ أهل الجنة».

قال: فقال حذيفة: فاستغفر لي ولأمي، قال: «غفر الله لك يا حذيفة ولأمك».

فهذا جبريل عليه السلام نزل من السماء بهذه البشارة التي تقر بها عين النبي ﷺ، وتسعد بها نفسه وتطمئن بها روحه.

ومن المعلوم بالضرورة في جِبِلَّة الإنسان أنَّ نفسه تنضر وتَقَرُّ عينُه بصلاح ولده، فكيف بسَبْقِ الولد وسِيَادِته في ميدان الصلاح والفلاح؟

۞ نظر شريف

وهذا الذي سُقْتُه لك موجزًا فيه نظرٌ شريفٌ لا تَحْسُن الغفلةُ عنه، وهو أن هذا الاختصاصَ في فاطمةَ عليها السلام اكتسب رِفعةً خاصةً مُفَارِقَةً لمجرد ذِكر صلاح الذرية: فهو اختصاصٌ به تمامُ قُرَّةِ عين أحبِّ الخلق إلىٰ رب العالمين ﷺ.

(١) ح ٢٣٣٣٠.

وفيه أيضًا كَبْتُ الشانئ المبغض؛ لأنهم كانوا سِمامَ العِدا[1] وغيظَ الحسود: **فالحسن** عليه السلام سيدٌ كامِلُ السُّؤْدُدِ، جمع الله به شَملَ الأمةِ، وأبطل عملَ ضِبَاع الضلال وعقاربِ البَغضاءِ، ونَبَذَ الدنيا وراء ظهره نَبْذَ النَّواةِ، لا يلقي لها بالًا، كجَدِّه المبارك صلى الله عليه وآله وسلم، مُعْرِضًا عنها، كارهًا لها!

فأسكت الله تعالىٰ به صليلَ السيوف، وحَفِظَ به أعمارَ الناس، وارتفع عن الأمة غُبَار محنةٍ نزفتْ دمًا حزينًا سنين عدَدًا!

وأخوه السيد الفذ أبو عبد الله **الحسين** عليه السلام، كان مثالًا حيًّا للحقِّ حين لا يُهادن الباطل، ولا يركن إلىٰ دَخَنِ المُدَاهنات، فقام وهو يعلم أنْ ليسَ هنالك من سببٍ يُؤازِره، أو جيشٍ يُنَاصِرُه، وقد كان ـ لو كان للدنيا في قلبه طيفٌ عارضٌ وحاشاه ـ غنيًّا عن خوْضِ هذا كُلِّه، ولكنه كما قال أبو الطيب، والحُسَيْنُ أحقُّ بها وأهلها:

وإنـــي لمـــن قـــومٍ كـــأن نفوســـهم ❦ بهـا أَنَـفٌ أن تسْـكُنَ اللحـمَ والعظمـا

فهما سيِّدان في الفضل والصلاح والرِّفعة وشَرَفِ المَحْتِد[2] والنِّجار[3] العظيم، والنسب المبارك الذي لا يُدانىٰ، أصلح الله تعالىٰ بالأول بين فئتين من المسلمين عظيمتين، وأصلح بالثاني بصيرة الأمة أن تضل فيلتبس عليها حق بباطل.

فبالأول كان صلاح حياة المسلمين، وحَقْنُ دمائهم، وبالثاني كان صلاحُ

(١) يعني كأنهم في شجاعتهم يكونون كالموت والسم لأعدائهم.

(٢) يقال: فلان كريم المحتِد: أي كريم الأصل، ومن أكرم من الحسن والحسين أصلا وشرفا عليهما السلام؟!

(٣) النِّجار ـ بكسر النون ـ الأصل والحسب.

حياةِ قلوبهم أن لا تَزِيغَ فتَضِلَّ.

وكلاهما كان مثالًا ناضرًا للزهد حين يُغَالِبُ الأَثَرة، ويشتري الآخرةَ، مُجَافِيًا لزينة الحياة الدنيا، وبَهْرَجِها الزائل المُضْمَحِلِّ.

ويعجبني قول الحطيئة في أبيات له حسانٍ:

فـإنَّ الشـقي مـن تعـادي صـدورهم ❁ وذا الجَـدِّ مـن لانـوا إليـه ومـن وَدُّوا
يسوســون أحلامــاً بعيــداً أَنَاتُهــا ❁ وإن غَضِـبوا جـاء الحفيظـة والجِـدُّ
أَقِلُّــوا علــيهم لا أبــاً لأبيكمُــو ❁ من اللوم، أو سُدُّوا المكانَ الذي سَدُّوا
أولئـك قـومٌ إن بَنَـوْا أحسـنوا البِنَـا ❁ وإن عاهدوا أوفوا، وإن عَقَدُوا شَدُّوا
وإن كانـت النَّعْمَـاءُ فـيهم جَـزَوْا بهـا ❁ وإن أنعمــوا لا كَــدَّرُوها ولا كَــدُّوا
وإن قـال مـولاهم علـى جُـلِّ حـادثٍ ❁ من الدهر: رُدُّوا فضل أحلامكم، رَدُّوا

النور الثاني

۞ خزانة الصبر

كان لفاطمة عليها السلام نصيب خاص من الصبر ارتفعت به صُعُدًا[1] في مدارج العبودية ومنازل الولاية الإلَهية.

وهو صبرٌ جامع يُثيبُ قلبَها:

ـ إيمانًا مخبتًا تعتصم به من سعير الفراق والفقد.

ـ وشجاعةً باسلةً لا يُرهبها بوارقُ التهديد.

ـ وزهدًا شريفًا لا تلتفت معه إلىٰ بهرج الدنيا.

وهذا كله بَيِّنٌ بشواهده فيما أُورده لك إن شاء الله.

۞ الإيمان المخْبِت

أما ذلك الإيمان المُخْبِتُ الذي بسط أنوارَه في قلبها المبارك، فحالَ بينها وبين نيران الفَقْد؛ فأمْرُه عظيمٌ؛ وذلك أنَّ أخَوَاتِها وأُمَّها وأبَاها سيِّدَنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم، ارتحلوا عنها في حياتها، وكُلُّهم في ميزان احتسابِها وصَبْرِها عليها السلام.

(١) الصَّعُود: المكان فيه ارتفاع.

ومتىٰ أنعم الإنسان النظر في هذا الرُّزْء[1] الجليلِ تداعتْ بين يديه همومٌ ثِقال، ونَبض في صدره «حزَّازٌ من الوجد حامِزُ»[2] كما قال الشماخ بن ضرار رضي الله عنه في قصيدته المعروفة.

فهذه فتاة نشأت في مَعِيَّةِ أُمِّها خديجةَ رضي الله عنها، ولم تلبث أن طَوَتْها قوافلُ الموت، وارتحلت بها بعيدًا، وهي بعدُ في غَضارة الصبا والطفولة[3]!

فقد وُلِدت قبل المبْعَث بقليل، كما ذكر أبو عبدالله الذهبي في السِّيَر[4].

وقيل: بل وُلِدَت في الإسلام كما قال الحافظ في الفتح[5].

وأقصىٰ ما قيل في عمرها المبارك رضي الله عنها أنها عاشت ثلاثين سنةً، والراجح أنها عاشت أقلَّ من ذلك بكثير، عليها السلام.

وكانت وفاة أمها وموئل حنانها وحبها خديجة رضي الله عنها وهي صبية صغيرة في العاشرة، فقد ماتت سيدة النساء أمنا خديجة رضي الله عنها قُبَيل الهجرة بثلاث سنوات، زمنَ وفاة أبي طالب عم النبي ﷺ، فتراكمت الأحزان وترادفت علىٰ قلبه الشريف ﷺ.

ولو لم يكن ذلك الإناء العُلْوي في صدرها سماويًّا، مَغْسُولًا بأنوار الوحي،

---

(١) المصيبة.

(٢) أي وجع القلب الشديد. وينبغي لك أن تطالع القوس العذراء لشيخ العربية محمود محمد شاكر رحمه الله.

(٣) الغضارة: طيب العيش.

(٤) ١١٩/٢

(٥) ١٠٥/٧

مَصْبُوغًا بالإيمان الراسخ؛ ما أطاقَتْ في عُمُرِها الصغيرِ كلَّ هذه الرجفات الْمُثْقَلَة!

فقد تتابَع ارتحالُ البيت النبوي بين يديها اسمًا اسمًا، كلُّ اسمٍ ومعهُ قصة وُجودِه، وذِكرياتُ حياتِه، وأشدُّ ما يكون علىٰ قلب الصادقِ؛ شوقٌ يتلفَّت فلا يجدُ غيرَ أصداءِ الذِّكرىٰ!

كل ذلك وهي صابرةٌ محتسبةٌ عليها السلام.

يقول الفاسي رحمه الله في العقد الثمين:

فقد كان له ﷺ من الولد: القاسم، وُلِدَ قبل النبوة، ومات وله سنتان. وقيل غير ذلك.

وفي مسند الفريابي: ما يدل علىٰ أنه تُوُفِّي في الإسلام.

ثم زينب رضي الله عنها.

قال الكلبي: هي أول ولده.

قال السَّرَّاج: وُلِدَت سنة ثلاثين، وماتت سنة ثمانٍ من الهجرة عند زوجها وابنِ خالتها أبىٰ العاص، يعني ابنَ الربيع.

ثم رُقَيَّة رضىٰ الله عنها: تزوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه، فماتت عنده، وتُوُفِّيت رضي الله عنها والنبي ﷺ ببدر.

ثم ذكر الفاسي فاطمة عليها السلام، ثم قال: ثم أم كلثوم رضي الله عنها: تزوَّجَها عثمان سنة ثلاث في جمادىٰ الآخرة. وتُوُفِّيت في شعبان سنةَ تسع[1].

(١) العقد الثمين ١/٤١٤.

كل إخوتها مضوا عليهم السلام، ومعهم أمها أمنا خديجة سيدة النساء عليها السلام، وهي تقبض على صبرها الباسل لا تفلته.

ثم كان المصاب الأعظم بموت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أعظم ما حل بالمسلمين إلى قيام الساعة.

فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لِيُعَزِّ الْمُسْلِمِينَ فِي مَصَائِبِهِمُ، الْمُصِيبَةُ بِي»[1].

وكان لفاطمة عليها السلام هنا صبرٌ خاص تجلى في طِباق ثلاثة:

فكان الطِّبَاق الأولُ حين أسر إليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم باقتراب أجله، فتنفست بعينيها بكاءً مخضوبًا بفُجَاءة الهم والحزن!

ثم تداعت نفسها لوعة وضِرامًا[2] بشعاليل الفقد التي جعلت قلبها مِزقا محترقةً تنبذها نبذًا في آنية الكلمات أنينا يلفح السامع والقارئ.

عن أنسٍ رضي الله عنه قالَ: لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ[3]، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ ـ عليها السلام ـ: وَا كَرْبَ أَبَاهُ! فَقَالَ: لَهَا:

«لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ».

فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ: يَا أَبَتَاهْ!

أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ!

---

(١) الموطأ (ت الأعظمي) ح ٨٠٩.

(٢) يعني: اشتعالاً.

(٣) يعني الكرب. حذفه لدلالة الكلام عليه.

يَا أَبَتَاهْ!

مَنْ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ!

يَا أَبَتَاهْ!

إِلَىٰ جِبْرِيلَ نَنْعَاه»[1]!

وتلك كلماتٌ ملتاعةٌ ملهوفةٌ، فيها لواعِجُ القلبِ[2] وجمرات الفقد تبثها فاطمة عليها السلام ساخنةً كاويةً كما ترىٰ!

وتَكرارُ النداء هنا فيه ما فيه من صَلِيل الأَسَىٰ والهَمِّ والآلام الهائِمَةِ في بيداء الفقد!

وحُقَّ لها والله!

ثم تحمل دَهْشَتَها[3] ولَهْفتَها وحَيْرَتَها وحُبَّها الفريدَ لأبيها عليه صلوات الله وسلامه، وحنانَها الفَذَّ، وإجلالَها العظيمَ له ﷺ، فتسأل أَنَسًا رضي الله عنه ذلك من وراء غَمَام بُكَائِها، فتقول:

يَا أَنَسُ! أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ التُّرابَ؟!

وهذا سؤالٌ ينبعث من القلب كالغريب الشارد الذي يهرول في رمضاءَ مُوحِشَةٍ يعلم أنْ ليس فيها ظِلٌّ يأوي إليه، أو قَطرةٌ تَبُلَّ حَنَايَاه، لكنه لا يَكُفُّ عن

(١) البخاري ح (٤٤٦٢).

(٢) يعني حُرقته.

(٣) الدهشة هنا بمعنىٰ الذهول المُسكت الذي يختطف الإنسان من كل شيء.

الهرولة والنِّدَاء، تأساءً[1] وتعزيةً لنفسه المكلومةِ ورُوحه المُتْعَبَة!

ولذلك فهي مع صبرها وإيمانها وعِلْمها أنَّ ما عند الله تعالىٰ خيرٌ لرسول الله ﷺ؛ لكنَّ لجسدها مُنَّةً[2] تَتَّسع لحَمل الصَّبْر حِينًا، ثم تنكسر عندما يأتي القلبَ ما لا يُطيق.

ولعل من الحسن أن أدُلَّك علىٰ مثالٍ يُدني منك هذا المعنىٰ الشريف:

أبو بكر رضي الله عنه علَمُ الصِّدِّيقيَّة وأعظمُ الصحابةِ سبقًا ومنزلةً في الإسلام، وآدَبُهم معه وبين يديه ﷺ، ولم يُعْرَف عنه مخالفةٌ للنبي ﷺ قطُّ[3]، وهو في الأدب مع النبي ﷺ أمةٌ وحده[4]، ففي الصلاة يشير إليه النبي ﷺ وقد تقدم المسلمين إماما أن يبقىٰ، فيتأخر ولا يحسن يتقدم الناسَ إماما ورسول الله ﷺ فيهم.

روىٰ سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال:

كان قتال بين بني عمرو بن عوف فبلغ ذلك النبي ﷺ بعد الظهر، فأتاهم لِيُصْلِحَ بينهم، وقال لبلال: «إنْ حَضَرَتِ الصلاةُ ولم آتِ، فمُرْ أبا بكرٍ فلْيُصَلِّ بالناس».

قال: فلما حَضَرَتِ الصلاةُ أذَّن، ثم أقام، فأمر أبا بكرٍ فتَقَدَّم، فلما تقَدَّم

(١) من الائتساء والاقتداء.

(٢) طاقة وقوة.

(٣) سيأتي من بعدُ بين يدي الكلام عن فدك؛ فصل نافع فيه كلام عن هذا المعنىٰ الجليل.

(٤) سيأتي بيان هذا قريبا.

جاء رسول الله ﷺ، فلما جاء صَفَحَ الناس[1].

قال: وكان أبو بكرٍ إذا دخل في الصلاة لم يَلْتَفِت.

قال: فلما رآهم لا يُمسكون[2] التَفَتَ، فإذا رسولُ الله ﷺ.

قال: فأومأ إليه بِيَدِه أنِ امْضِه.

قال: فرجع أبو بكرٍ القَهْقَرىٰ[3] قال: وتقدم رسول الله ﷺ، فلما قضىٰ رسول الله ﷺ الصلاة قال: «يا أبا بكر، ما منعك إذ أومَأْتُ[4] إليك أن تمضي في صلاتك؟» قال: فقال: ما كان لابن أبي قحافة أن يؤم رسول الله ﷺ، ثم قال: «إذا نابكم في الصلاة شيء، فليُسَبِّح الرجال، وليُصَفِّق النساء»[5].

فانظر ذلك الأدب الرفيع منه رضي الله عنه.

ولا يتقدم النبيَّ ﷺ قطُّ بكلمة أو بقول، حتىٰ في أَخَصِّ أمورِه وأَعْذَرِها للكلام، مثل حادثة الإفك، ولقد قالت له أُمُّنا الصديقة عائشة رضي الله عنها: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال.

فقال: ما أدري واللهِ ما أقولُ لرسول الله ﷺ؟

وروىٰ الطبري وأبو عوانة من طريق أبي حُصَيْنٍ عن مجاهد، قال: قالت عائشة لما نزل عُذْرها، فقبَّل أبو بكرٍ رأسَها: فقلتُ: ألا عَذَرْتَنِي؟! فقال: أيُّ

(١) يعني صفقوا.

(٢) يعني لم يتوقفوا عن تنبيهه.

(٣) يعني إلىٰ الوراء بظهره من غير إدارة جسده حتىٰ لا يستدبر القبلة.

(٤) أشرت.

(٥) صحيح البخاري ح (١٢٣٤).

سماءٍ تُظِلُّني، وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني إذا قلتُ ما لا أعلم؟![1].

ولا تَظُنَّ أنَّ هذه كلمةُ جاهلٍ ببراءة ابنَتِه، ولكنها كلمة صِدِّيقٍ لا يتقدم بحرفٍ بين يدي رسول الله ﷺ ولو على نفسِه أو على بَضْعَتِه وحَبَّةِ قلبه وابنته!

وهذا والله هو السُّؤْدُد السَّماويُّ الذي ارتفع به الصديق ارتفاعًا ربانيًّا، فسبق به الصحابة كلهم، وكان أولَّ الرَّكْبِ وأعظمَ الصَّحب رضي الله عنهم.

غير أنَّ له موقفًا خالف ذلك النسق المُطَّرِد، فتكلم بالصوت العالي في مشهد واحد فريد، هو ما إليه قصدتُ بالاستشهاد لما وقع من فاطمة عليها السلام حين طرقها الحزن.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "خرج علينا رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه متعطفا مِلْحَفَةً على مَنْكِبَيْه، قد عصب رأسه بعصابةٍ دَسِمَة" فتلَقَّته الأنصار بينهم، فقال: «والذي نفس محمدٍ بيده، إني لَأُحِبُّكم!».

فقعد على المنبر ـ وكان آخر مجلس جلسه ـ فقال: «أيها الناس! إليَّ»!

فثابوا إليه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن الله خيَّرَ عبدًا بين أن يُؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختارَ ما عند الله»، فبكى أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقال: بأبي أنت وأمي، بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا!

فعجبنا لبكائه وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا "فكان رسول الله ﷺ هو العبدَ المُخَيَّر"، وكان أبو بكر أعلَمَنا بما قال

(١) انظر فتح الباري (٨/٤٧٧).

رسول الله ﷺ[1].

فهذا موقفٌ لم يحتمل فيه قلبُ أبي بكر التعريضَ بالوداعِ، ونَفِذَ من وراء حُجُبِ المجاز، وخَفَقَ قلبُه حين سماع ذلك الخبر الذي له أشباه كثيرة سبقت من رسول الله ﷺ، لكنَّ أبا بكرٍ يُحْسِنُ تفرُّسَ ملامحِ الكَلِم، ويعي عن رسول الله ﷺ صَمْتَه وهمسَه وكلامَه ومقاصِدَه، فإنه أعلم الناس به وأشدُّهم حبا له ﷺ، وقد سمع ما لا قبل لقلبه باحتماله، فنهض به فزع المحب فباح، ومست قلبه رجفة الفقد فصاح!

وهذا الذي فصَّلْتُ لك هو الذي كان من فاطمة عليها السلام، استهلَّت شئونها[2] باكيةً في البدء، ثم أرسلتْ لوعتَها الدامعةَ كلامًا يقطُر دمعًا، ثم تساءلت سؤال الدَّهِش المَكْلُوم الذي أظلمت عليه الدنيا بعد الوفاة!

فلم يكُ عجيبًا أن يكون جسدُها من بعد وفاته ﷺ في قبْضَةِ الأوْصَاب والمرض، فقد طَرَقَه من الألم ما لا يُطِيق ولا يُطَاق!

وقد وجدتُ شاهدًا على هذا المعنى الذي وقع لي: إذ قال التابعي الثقة عبد الله بن الحارث بن نوفل رحمه الله ورضي عنه: مكثتْ فاطمة بعد النبي ـ ﷺ ـ ستة أشهر **وهي تذوب** وما ضحكتْ بعده أبدا[3].

نعم! بقِيَتْ أيامَها الباقيةَ في الدنيا مريضةً مُتْعَبَةً عليها السلام، حتى لَقِيَتْ ربَّها،

---

(١) صحيح البخاري ح (٣٩٠٤).

(٢) أي مواضع فيض الدموع. يقول جميل في أبيات عذبة:

إذا خَطَرَتْ من ذكر بَثْنَةَ خَطْرةٌ ❦ عصتني شئون العين فانهلَّ ماؤها

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢٨/٢).

ولحقت سيد الأولين والآخرين ـ ﷺ ـ في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ومذ وُلِدَت ﵂ والأحداث تَمُورُ مَوْرًا[1]، من كِذابٍ يُحيط بالنبي ﷺ، يتولىٰ كِبرَه بعضُ قرابته كعمه أبي لهب وزوجِه أم جميل، وما كان فيه ﷺ من إعناتِ قريشٍ، وحِصارها، ومُصَارَحَتِها بالعَداء، والرَّصْدِ المتتابع الذي يقْفُو أثرَ النورِ بنارهِ، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨-٩].

والنبي ﷺ بين النِّذارة والبِشارة يصل ليله بنهاره، ويؤمُّ القلوبَ بأنوار الوحي يمسح عنها أخلاطَ الوثنيةِ، ويستخفي هنالك ـ بعيدًا عن رَصَدِ الحِقد وشَرَر العَدَاواتِ ـ في دار الأرقم، يَرْقُم الآياتِ علىٰ ألواح الصدور والقلوب، ويبثُّ المؤمنين صَبْرًا طويلًا، ثم يؤوبُ إلىٰ سَقِيفة الليل، يصفُّ قدميْه بين يدي الله في مَحْضِن التهجُّد وخَلْوة القُرب والمَعِيَّة، يصلي هنالك طويلا طويلا.

ثم يصدع غير هيَّاب بالدعوة، وسيوف قريش تُلَوِّح في رمضائها ترهيبًا وتنكيلا، ثم تتوارىٰ خلف حَيَايَا المكرِ والحِيل إطْمَاعًا وترغيبًا، فيجدونه ﷺ لونًا واحدًا لا يتغير، وثباتًا راسيًا لا يتأوَّد، ويقينا راسخًا لا يتقلب!

ومِن حول جبال صدقه وعزيمته نباتُ الصِّدق من أصحابه ﵃، ومن ورائِه أهلُ بيتِه يَمُدُّونه بسواعِدِ التأييدِ والسَّكينة والنُّصْرة ﵈.

(١) تضطرب وتتابع بحركة شديدة.

۞ الباسلة

ثم تمرُّ الأيام، ومَرَاجل[1] الغيظِ تغلي في قلوب شياطين قريش، وينال النبيَّ ﷺ الأذىٰ الجاحدُ ممن يريد لهم الحياةَ والهدايةَ والنَّجاة!

فينبعث أشقاها فيُلقي علىٰ النبي ﷺ سَلَا الجزور يَهْزَأ به، ويحسِب ـ قُتِل! ـ أنه بذلك يطمِس لَأْلَاءِ عِزِّه[2]، شأنَ الضَّفادعِ الحَمْقَاء ذهبتْ لتُقاتلَ النجمَ في غدير الماء، فما أصابتْ غيرَ وهْمِها! وبقِي النجم في سمائه عاليًا رفيعا!

وتسمع بهذا الأذىٰ البضعة الباسلة فتنهض بإبائها وإيمانها وصدقها وشجاعتها وتذهب إلىٰ حيث الرسول ﷺ، وتجبه المشركين فتعصف عصفا بغضبها، وترميهم بلسانها لا تبالي بهم.

وعن هذا يحكي ابن مسعود رضي الله عنه، فيقول[3]:

عن عبد الله بن مسعود أن النبي ـ ﷺ ـ كان يصلي عند البيت في ظل الكعبة، وأبو جهل وأصحاب له جلوس؛ إذ قال بعضهم لبعض: (وفي رواية: أبو جهل وناس من قريش ـ ونُحِرَت جَزور بناحية مكة) ألا تنظرون إلىٰ هذا المرائي؟ أيُّكُم يجيء بسَلَا جزور بني فلان[4]

(وفي رواية: فيعمد إلىٰ فَرْثِها[5] ودَمِها وسَلَاها) فيضعه علىٰ ظهر مُحَمَّدٍ

(١) المرجل: الإناء الذي يُغلىٰ فيه الماء.
(٢) اللألاء: الضوء المتوهج.
(٣) انظر مختصر صحيح البخاري (١٤١) وتخريج الحديث هنالك.
(٤) سلا الجزور يعني الجلدة التي يكون فيها ولد البهائم.
(٥) رواسب كرش الدابة.

إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم عُقْبَة بن أبي مُعَيْط، فجاء به، فنظرَ، حتى إذا سجد النبي ـ ﷺ ـ وضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر لا أُغني شيئًا.. لو كان لي مَنَعَةٌ[1]!

قال: فجعلوا يضحكون، ويُحيل بعضهم على (وفي رواية: حتى مال بعضهم إلى) بعضٍ من الضحك، ورسول الله ـ ﷺ ـ ساجدٌ لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة (وفي رواية: فانطلق مُنْطَلِقٌ إلى فاطمةَ وهي جُوَيْرِيَةٌ، فأقبلت تسعى) فطرحتْ عن ظهره، وأقبلت عليهم تَسُبُّهم.

وفي روايةٍ: ودَعَتْ على من صنع ذلك، فرفع رأسه، ثم استقبل الكعبة فدعا، وفي رواية: فلما قضى رسول الله ـ ﷺ ـ الصلاة، قال: «اللهم عليك بقريش»، ثلاثَ مرات، فشَقَّ عليهم إذْ دعا عليهِم ـ.

قال: وكانوا يرونَ أنَّ الدعوة في ذلك البلد مُسْتَجَابةٌ ـ ثم سمى: اللَّهُمَّ عليك بأبي جهلِ بن هشام، وعليك بعُتبة بن ربيعة، وشَيْبَةَ بن ربيعة، والوليدِ بن عتبة، وأُمَيَّة (وفي رواية: وأُبَيِّ، وفي أخرى: أو أُبَيِّ بن خَلَف، وعُقْبة بن أبي مُعَيْطٍ، وعُمارة بن الوليد).

قال عبد الله: فوالذي نفسي بيده! لقد رأيتُ الذين عَدَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ صرعى في القَلِيب، قَلِيبِ بدر، (وفي رواية: ولقد رأيتهم قُتلوا يوم بدر ثم سُحِبوا)، فأُلقوا في بئر؛ غير أُمَيَّة أو أُبَيّ؛ فإنه كان رجلا ضخما، فلما جَرُّوه، تقطعت أوصاله قبل أن يُلقَى في البئر، قد غيَّرَتْهم الشمس، وكان يوما حارًّا. ثم

(١) كلمة أسف وتحسر.

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «وأُتْبِعَ أصحابُ القَلِيب[1] لعنة»[2].

فأنت ترىٰ فاطمةَ في هذا المشهد الذي حضره أولئك المجرمون، لم ترهَبْ وجودَهم ولم تُبَالِ بهم، وألقتْ بكلماتها الشِّدادِ بين ظَهرانَيْهم، فهي ابنة سيد الخلق ﷺ، وابنة سيدةِ النساء خديجةَ رضي الله عنها، أنَّىٰ يجد الخوفُ من المشركين إلىٰ قَلْبِها سبيلا ؟!

فقامت هذا المقام الكبير في تلك السن الصغيرة، "وهي جُوَيْرِيَةٌ"، تحوط أباها سيد المرسلين ﷺ وتصونه من أذىٰ قريش وغدرها.

ثم تمضي الأيام ينسَخُ بعضها بعضًا، ونار قريش ظامئةٌ إلىٰ الأذىٰ، تشتعل في صدورهم بالضغائن والبغضاء، ولا غاية لها إلا إفناءُ الإسلام ومحاربة رسول الله ﷺ وأصحابه.

ثم تكون محنةُ أُحُدٍ، ويلحق النبيَّ ﷺ وأصحابَه من الأذىٰ ما لحقهم، ويذهب شهيدًا إلىٰ ربه سبعون من الصحابة رضي الله عنهم، والنبي ﷺ ينزف بعد الواقعة، ويمسح الدمَ الشريف عن وجهه المبارك ﷺ.

فتُقبِلُ فاطمة عليها السلام بصبرها الباسل، وتُقبِّل والدها سيد العالمين ﷺ تؤازره وتُطَبِّبه.

سُئِلَ سهلُ بن سعد رضي الله عنه عن جُرح سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ، فقال: أَما واللهِ

(١) البئر.

(٢) متفق عليه وانظر الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (١٤/٣١٥).

إنِّي لأعرفُ مَن كان يغسلُ جُرحَ النبي ـ ﷺ ـ، ومن كان يسْكب الماء، وبماذا دُووِيَ به، كُسِرَتِ البَيْضَة[1] على رأسه، وكُسِرَت رَبَاعِيَتُه[2]، وجرح وجهه، قالوا: هاتِ يا أبا العبّاس! فحَدِّثْنا!

قال: كانت فاطمة تَغْسِلُه؛ وكان عليٌّ يسكب الماء بالمِجَنِّ[3]، فلمَّا رأَت فاطمة أَنَّ الماءَ لا يزيد الدمَ إلّا كثرةً أخذت قِطعةً من حصير، فأحرقتْها حتى صارت رمادًا وألصقتها على جرحه، فاستمسك الدمُ[4].

والمرأة تتلوى في مشهد الجراح، وتضطرب بين يدي الدماء، ولكنَّ هنالك نفسا باسلةً تنفذ بها في مضائق الدهر، صابرةً محتسبةً لا طمع فيها لِوَهَن.

۞ أُمُّ أبيها:

وهذا الصبرُ الفذُّ في رَضْفِ[5] المحن، مع ظلال الحنانِ الذي كانت تَحُوط به النبي ﷺ؛ ترقب رضاه، وتظلله بحبها وتخدمه بنفسها وتطببه؛ جعلها كالأم الصغرى له ﷺ، مع أنها أصغر بناته عليهن السلام، ولذلك كان من ألقابها أم أبيها عليها السلام.

فقد ذكر الحافظ أبو القاسم الطبراني رحمه الله في معجمه الكبير قال: حدثنا

(١) يعني الخوذة التي توضع على الرأس وقايةً لها.
(٢) الرباعية هي إحدى الأسنان الأربع التي تلي الثنايا، بين الثنية والناب.
(٣) المجن: الترس.
(٤) في الصحيحين.
(٥) الرضف الحجارة الحامية بالشمس أو النار، عياذا بالله والمقصود هنا شدة المحن.

محمد بن علي المديني فُسْتُقَةُ قال: «وكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تُكْنَىٰ أُمَّ أبيها. يقال: كانت أصغرَ ولدِ رسول الله ﷺ من خديجة، ويقال: بل كانت توأمَ عبد الله ابن رسول الله ﷺ»[1].

فكانت علىٰ هذا السَّمْتِ الفريدِ والطراز الفذ، تصبرُ علىٰ اللأْوَاءِ والضَّرَّاء، لا تُوسِع في صدرها مساحةً لأشواك الشَّكْوَىٰ، وإنما هي النَّفسُ الصَّبورُ المعْتَصمةُ بربها، البذولُ بما تملك، القانتةُ المحتسبة عليها السلام.

(١) ٣٩٧/٢٢

الفراغ الشريف

«مالي وللدنيا»[1]!

تلك خَصلة شريفة عزيزة، لا تكون إلا للكبار الذين خَلَصَتْ قلوبهم من فتنة الثرثرة وصخب التكاثر.

لا تجد في فاطمة عليها السلام غير السكينة بمعانيها وثمارها وآثارها، ولا تنمو السكينة بظلالها وأنوارها إلا في نفسٍ زاهدةٍ، قد فَرَغَت من الدنيا، وصامت عن بهرجها وضجيجها.

وهذا شأن مُطَّرِدٌ لا تخطئه أبدا في حالاتها كلها، رضًا وغضبًا، فرحًا وحُزنًا، ولا يستقيم هذا الخُلق إلا لنفسٍ مُصْطَفَاةٍ مُطَهَّرةٍ من أدناس النفوس وخَبَثِها، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وهذا الأصل الشريف شفاءٌ لك في مواطنَ كثيرةٍ ضلَّت فيها أقلامٌ كثيرة استَقَتْ من دَواةِ الدنيا، وقاسَتِ الأمورَ مقاييس أجنبيةً عن آل البيت وسيدة نساء العالمين عليهم السلام.

وهذا أوان فَسْرِ[2] هذا الأصل وترجمته بشواهده.

(١) من كلامه عليه الصلوات والسلام.

(٢) تفسير.

يتقدم إليها علي ﷺ خاطبا وليس يملك من الدنيا كبير شيء، وهو ابن عمها لا يخفىٰ عليها حظه من الدنيا، ولا موضع سكنه، ولا طبيعة عمله.

عن ابن عباس ـ ﷺ ـ أن عليا ـ ﷺ ـ قال: تزوجتُ فاطمة ـ ﷺ ـ فقلت: يا رسول الله ابنِ بي[1] قال: «أعْطِها شيئًا».

قلت: ما عندي من شيء.

قال: «فأين دِرْعُكَ الحُطَمِيَّة؟[2]».

قلت: هي عندي.

قال: «فأَعْطِها إياه».

فلما أدخلها عَلَيَّ، قال: «لا تُحْدِثا شيئًا حتىٰ آتِيكُما».

فجاءنا، فدعا رسول الله ـ ﷺ ـ بماءٍ، فتوضأ منه، ثم أفرغَه علىٰ عَلِيٍّ، فقال: اللهم بارك فيهما، وبارِكْ لهما في بِنَائِهما[3].

فإن أردت معرفة مال علي وما كان يملكه فانظر ما قَصَّه مما وقع بينه وبين حمزة ﷺ.

يقول ﷺ: كانت لي شارِفٌ[4] من نصيبي من المَغنم يومَ بدر، وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ أعطاني شارِفًا من الخُمْسِ يومَئِذٍ، فلما أردتُ أن أبنيَ بفاطمةَ بنتِ

(١) يعني ائذن لي في البناء بفاطمة.

(٢) نسبة إلىٰ بني حطمة، كانوا مشهورين بالدروع، وقيل التي تحطم السلاح.

(٣) انظر الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣٥/٧٠) وتخريج الحديث هنالك، وهو صحيح.

(٤) ناقة مسنة.

رسولِ الله ـ ﷺ ـ واعَدْتُ رَجُلاً صَوَّاغًا من بني قَيْنُقَاع أن يرتحلَ معي فنأتيَ بإذْخِرٍ، أردتُ أن أبيعَه من الصوَّاغين فأستعينَ به في وليمةِ عُرسي.

فبينا أنا أجمع لِشارفي مَتَاعًا من الأقتاب والغَرائِر والحبالِ[1]، وشَارِفَايَ مُنَاخان إلىٰ جنب حُجْرة رجلٍ من الأنصارِ، أقبلتُ حين جمعتُ ما جمعتُ، فإذا بشارفَيَّ قد اجتُبَّت[2] أسنمتُهما، وبُقِرتْ[3] خَواصرُهما، وأُخذ من أكبادِهما، فلم أملِك عينيَّ حين رأيتُ ذلك المنظرَ، فقلت: مَنْ فعل هذا؟ قالوا: فعله حمزةُ بن عبد المطلب، وهو في هذا البيتِ في شَرْبٍ من الأنصارِ، غَنَّته قينةٌ وأصحابَهُ، فقالتْ في غنائها:

ألَا يَا حَمْزُ لِلشُّرُفِ النِّوَاء![4]

فوثب حمزةُ إلىٰ السيفِ، فاجْتَبَّ أسنِمتَهما وبقر خواصِرَهما، فأخذ من أكبادهما.

قال عليٌّ: فانطلقتُ حتىٰ أدخُلَ علىٰ رسولِ الله ـ ﷺ ـ وعندَه زيدُ بن حارثةَ، قال: فعرف رسولُ الله ـ ﷺ ـ الذي لقيتُ، فقالَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما لكَ؟» قال: فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما رأيتُ كاليوم، عَدا حمزةُ علىٰ ناقتيَّ، فاجتَبَّ أسنمتَهُما وبَقَر خواصِرَهما.. الحديث[5].

(١) القتب: الرحل الذي يُوضع علىٰ الناقة. والغرائر حوايا التبن وغيره.
(٢) يعني قُطعت، وكانت العرب ترىٰ السنام أشرف اللحم.
(٣) شقها شقا بالسيف.
(٤) الشُّرُف النِّوَاء: أي النوق السِّمان.
(٥) صحيح البخاري ح ٤٠٠٣.

فهذا حديث يدلك علىٰ خَصَاصَةِ[١] عيش علي ﷺ، وقلة ذات يده، ومع هذا كله لا يُعْلَمُ في روايةٍ حرفٌ عن فاطمةَ عليها السلام تطلب زيادة أو تتطلع إلىٰ سعة!

ولما أرسلها سيدنا رسول الله ﷺ إلىٰ بيت الزوجية زودها بخَمِيلَةٍ[٢]، ورحايَيْن ـ للطحين ـ وجَرَّتَين ـ للماء وغيره ـ، ووسادةً من أَدَم حشوها ليف.. هذا كله زادها من الدنيا وهي ابنة خير الخلق ﷺ.

وهي في هذا كله فارغةُ النفس من شَوَائِبِ التَّطَلُّع ونَزَغَات الضَّجَر عليها السلام.

وتُقبل علىٰ بيتها وخدمة زوجها، وصناعة مهاد السكينة بإيمانها وحُسن تبعلها؛ لأن هذه النفوس لا تستقي سعادتها من رياش الدنيا ولا تلتمع الفرحة في نفوسهم بالتماع الذهب والفضة في أعينهم!

ويوم شكا زوجها من أعباء العمل، وتعبت رضي الله عنها من شظف العيش، ومَجَلَتْ يدُها من الطَّحْن[٣] ذهبت لتلتمس خادما من أبيها رسول الله ﷺ.

عن عليٍّ عليه السلام[٤] أنَّ رسول الله ﷺ لما زوجه فاطمة بعث معها بخميلة ووسادةٍ من أَدَمٍ[٥] حشوها ليفٌ وجَرَّتين ورَحَايَيْن وسِقاءً.

قال علي لفاطمة: والله لقد سَنَوْت[٦] حتىٰ اشتكيت صدري وقد جاء اللهُ

---

(١) فقر.

(٢) قطيفة.

(٣) أي تورمت من أثر الطحن وصَلُبت وثَخُن جلدُها وظهر فيها ما يشبه البَثَر من العمل بالأَشياء الصُّلْبة الخشِنة.

(٤) الضياء في المختارة ح (٤٦٧).

(٥) يعني جلد.

(٦) أي استقيت وحملت الماء.

أباكِ بسببٍ فأْتِيه فاستخدميه[1].

فقالت: وأنا والله لقد طحنت حتىٰ مَجَلَتْ يداي.

فذهبتْ إليه فاستحيت أن تُذَكِّرَه ذلك.

فقال ﷺ: ما جاء بكِ؟

قالت: جئتُ أُسَلِّم عليك يا رسول الله!

فرجَعَتْ! فقال لها علي: ما فعلتِ؟

قالت: استحييتُ أن أذكر له شيئا!

فأَتَيَاه جميعًا، فذكرا ذلك، فقال: قد أتاك الله بسبيٍ وسَعَةٍ، فأَخْدِمنا.

فقال رسول الله ﷺ: لا أُخْدِمُكما وأدعُ أهلَ الصُّفَّة يطوون جوعًا ولا أجد ما أُنفق عليهم! ولكن أبيعه وأُنفقه عليهم.

فرجعا فدخلا في خميلتِهما فجاء رسول الله ﷺ وهما في خميلتهما إذا غطيا رءوسهما انكشفت أقدامهما، فقال رسول الله ﷺ: «مكانكما ألا أخبركما بشيء خير مما سألتماني علمنيه جبريل عليه السلام، إذا أويتما إلىٰ فراشكما سبحتما ثلاثا وثلاثين، وحمدتما الله ثلاثا وثلاثين، وكبرتما أربعا وثلاثين» قال علي: فوالله ما وَدَعْتُهُنَّ منذ علمني رسول الله ﷺ، فقال أبو الكوا ـ قال حجاجٌ: هو ابن الكوا ـ: ولا ليلةَ صِفِّين؟ فقال علي: قاتلكم الله! ولا ليلةَ صِفِّين.

(١) أي اطلبي خادما.

فقد أسكتها الحياء عن إبلاغ رسول الله ﷺ طلبتها، وخَبَأَتْ عنه مُرادَها، وهي متعبة مرهقة من الطحن، وزوجها مُتْعَب مُرهَقٌ من العمل والسُّقيا، وقد جهدهما العيش ولها العذر في طلبها، ولكن هكذا هي عليها السلام حياء وشرفا!

وحين أراد ﷺ تطْييبَ خواطِرِهما بالذَّهاب إليهما، وعلَّمَهُما تسابيحَ ومَحَامِدَ وثناءاتٍ، رضِيَتْ فسكنت، وما راجَعَتْه في ذلك، رضًا بالله ورسوله ﷺ، لا ضجرة ولا متأففة.

ولا ترضىٰ بهذا الميراث السماوي إلا نفسٌ وجدتْ حلاوة الإيمان فاطمأنت إلىٰ ذكر الله تعالىٰ، ورضيتْ بوصاة رسول الله ﷺ.

فكانتْ سكينةً وأمانًا لأبيها عليه صلوات الله وسلامه، يأمرها فلا تُراجعه بحرف، ويَدَعُها لميراثِ الإيمان في روحها، ونور الإخبات في قلبها، فتسكن وتطمئن وترضىٰ عليها السلام.

البلاغة القاصدة

وقد صبغها ذلك الزهد الصابر والفراغ الشريف بثماره المباركة: صَمْتًا عن القيل والقال، وارتفاعًا عن نَزَغَات الغضب، وصَوْنًا للنفس من سَفَاسف الأخلاق.

تسمع عليها السلام بعزم زوجها عليه السلام الزواجَ من ابنة أبي جهل، فتهتم لهذا، وتذهب لتُخْبِرَ سيد المرسلين ﷺ، بالكلمة الموجزة، والحرفِ الذي لا يكون أوسعَ من مقصوده.

فأَتَتْ رسولَ اللهِ ـ ﷺ ـ، فقالَتْ: يَزْعُمُ قومُكَ أنكَ لا تغضَبُ لبناتِكَ، وهذا عليٌّ ناكحٌ بنتَ أبي جهل[1].

هكذا وحسب!

تمت الرسالة، وبلغ المعنىٰ، فلا تطويلَ ولا تَهويل، ثم أرأيتَ كيف لم تقُل: يزعم قومك أنك لا تغضب «لي»، بل قالت بحياءٍ فريد، ووقارٍ شريف: «لبناتك»، فهي معهن، لا ترىٰ لنفسها مَزِيَّةً عنهن، وهي هي عليها السلام.

وهكذا النفس الزكية لا تحشد ألقابَها بين يديها، ولا تسعىٰ لطلب أثمان هذه المنزلة من أفعال الناس وأخلاقهم.

(١) في الصحيحين وغيرهما، وهذا لفظ البخاري ح (٣٧٢٩).

مع أن اسم فاطمة عليها السلام يتبلَّجُ[1] في بيانه ﷺ مرارًا، إشارة إلىٰ خصوصيتها في قلبه، حتىٰ استقر ذلك في الناس وفقهته قلوبهم.

وهذا يدلك عليه اختصاصها بضرب المثل في القُرب والحبِّ وإقامة العدل، في أحاديث كثيرة:

كقوله ﷺ في صَدْر الرِّسالة: يا فاطمةُ بنتَ محمدٍ، سَلِيني من مالي ما شئتِ.. اعملي! لا أُغني عنكِ من الله شيئا[2].

ثم يقول في مشهد آخر: لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقتْ؛ لَقَطَع محمدٌ يدها ـ ﷺ ـ[3].

وله ﷺ غيرها من الأولاد، وكلهم لو ضُرِب به المثلُ لتمَّ المعنىٰ، ولكنها هي هي عليها السلام!

فقَدْرُها معروف مشهور محفوظ، ومع هذا لمَّا علمتْ نيَّةَ عليٍّ؛ ذهبتْ فعَرَضَتْ كلامَها، لا تتكئ علىٰ هذا الفضل، ولا تلتمس ثمرةَ تلك المنزلة.

ثم إنها عليها السلام تحفظ لزوجها مكانته، ولا تجور عليه باللفظ، ولا تصف أثرَ فِعْلِه عليها، ولا تتوسَّع في ذلك ـ حاشاها ـ شأنَ كثيراتٍ من اللائي واللواتي!

ولو فَعَلتْ فوصَفَتْ، أو صَبَّت آلامَها في كلمة، أو كَسَتْ ألفاظَها رداءَ الغضبَ؛ لكان هذا في سياقه مفهومًا مقبولا، ولكنها فارغةٌ من هذه الثرثرة كُلِّها،

(١) البَلَج: ضياء الصبح وإشراقه، ويعني هنا يتوهج منيرا في كلامه ﷺ.
(٢) صحيح البخاري ح (٢٧٥٣).
(٣) صحيح البخاري ح (٦٧٨٨).

متىٰ أوصلت فكرتَها كفَّت لسانَها وصانَتْه من شَوْب التزَيُّد.

وهكذا كانت عليها السلام في شأنها كُلِّه، لا تنطق إلا عند الحاجة، بأقصرِ لفظٍ وأوجَزِه وأبْلَغِه، وهذا خُلُقٌ عزيزٌ جدًّا في الرجال، بَلْه النساء!

وكأنها عليها السلام اتخذت من دون الناس والدُّنيا معًا حِجابًا، لا تُطِلُّ من خلفه بالكلمة أو العبارة إلا إذا أَجَاءَتْها[1] الضرورة، فإذا قضتْ مُرادها عادت مرة أخرىٰ إلىٰ حجابها تُسْدِلُه سابغًا لا تغادره.

وهذا عندي ـ والله أعلم ـ سببٌ من جملة الأسباب التي كان من أَجْلها كَرِهَ النبي ﷺ فمَنَعَ زواجَ عليٍّ رضي الله عنه من ابنة أبي جهل؛ لأنه يعلم أخلاق ابنَتِه المباركة عليها السلام، ويعلم أنَّ هذا الفِعلَ يُؤذيها فيُصْمِتُها عن مصاولة غيرها أو مجادلته.

وليس في طباعها الاستطالةُ بكلامٍ أو الدخولُ في جدال؛ لأنها فارغةٌ من هذا كُلِّه، لا تُحْسِنه، وتَرْغَب عن أسبابِه وبَوَاعِثِه.

وإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن للإنسان مُتَنَفَّسٌ للقول أو مُتَّسَعٌ للكلام حين يُؤذَىٰ أو يحزن؛ فإنه يُحْفَظ مما يخْدِش قلبَه ويجرح نفسَه أصالةً؛ أنْ لا يكون فتنةً عليه في نفسه، وثِقْلًا ثقيلًا يحمله في قلبه.

وهذه رحمةٌ جليلةٌ من نبينا ﷺ، بمراعاة حال بضعته الشريفة، وخِلالها وصِفَاتها وما يُلائِم طَبعها وتحْتَمِله نفسُها، وما يكون ضِدًّا لهذا، وعِبئا عليها.

ولعل هذا سببُ استعماله ﷺ ألفاظًا مثل «الريبة، والأذىٰ والفتنة، والنَّصَب ـ وهو التعب ـ والقبض والبَسْط»، في روايات الحديث المتعددة.

---

(١) أحوجتها واضطرتها.

فلما علم ﷺ خطب الناسَ فقال: «إن بَنِي هشامِ بن المغيرة استأذَنُوني أن يُنكحوا ابنتهم من علي بن أبي طالب، فلا آذَنُ، ثم لا آذَنُ ثم لا آذَنُ، إلا أن يريد ابنُ أبي طالبٍ أن يطلِّقَ ابنتي ويَنكِحَ ابنتَهم، فإنما ابنتي بَضْعةٌ مني، يُرِيبُني ما أرابَها، ويُؤذيني ما آذاها»[1].

وفي روايةٍ ذكر ﷺ لفظة «الفتنة»، فقال:

«أما بعد، فإني قد أنكحتُ أبا العاص بنَ الربيع فحدَّثَني فصدقني، وإن فاطمة بنت محمد بضعة مني، وأنا أكره أن «تفتنوها»، وإنها والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبدا»[2].

وفي روايةٍ عند الضياء في المختارة[3]: ويُنصِبُني ما أَنْصَبَها، وفي أخرىٰ عند أبي نُعيم في الحلية[4]: يَقبضني ما يقبضها، ويَبْسُطُني ما يَبْسُطُها.

وقد جمع جملة من روايات الحديث العلامة أبو عبد الرحمن ناصر الدين الألباني رحمه الله في مختصر البخاري، وهذا نصه[5]: «إنَّ بَنِي هشام بن المُغيرةِ استَأْذَنُوا في أن يُنْكِحوا ابنَتَهم عليَّ بنَ أبي طالب؛ فلا آذَنُ، ثم لا آذَنُ، ثم لا آذَنُ!

إلا أن يريد ابنُ أبي طالبٍ أن يُطَلِّق ابنتي، ويَنْكِحَ ابنتَهم!

فإنما فاطمة بَضْعَةٌ مني، يَرِيبُني ما أَرَابَها، ويُؤْذِيني ما آذَاهَا، فمَنْ أغْضَبَها

(١) البخاري ح (٥٢٣٠).
(٢) المسند ح (١٨٩١٢).
(٣) (٣١٥/٩).
(٤) (٢٠٦/٣).
(٥) (٣٥٣/٢).

أَغْضَبَنِي ، وأنا أَتَخَوَّفُ أن تُفْتَنَ في دينها» . وفي طريق: «وإني أَكْرَهُ أن يَسُوءَها» .

۞ طبقات النفوس ومعادنها:

وقد كان ﷺ يعرف معادن النفوس وأحوال الناس ، فيُوَلِّي رجلًا ، يعْلم أنه يُطيق الوِلايةَ والإِمارةَ ، ويمنع آخَرَ يعْلم أنه لا يُطيقها ، مع شهادته له بالصلاح والتقوىٰ .

انظر في هذا قوله لأبي ذر رضي الله عنه عندما قال له: يا رسولَ اللهِ ، أَلَا تَسْتَعْمِلُني[1] ؟ قال: فضرب بيده علىٰ منكبي ، ثم قال: «يا أبا ذر! إنك ضعيفٌ ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها ، وأدىٰ الذي عليه فيها»[2] .

مع أنه هو بأبي هو وأمي ﷺ قال شهادةً لأبي ذر رضي الله عنه: «ما أَقَلَّتِ الغَبْراءُ[3] ولا أَظَلَّت الخَضْرَاء[4] أصدقَ لهجةً من أبي ذر»[5] .

وأيضا مع عثمان ذي النورين رضي الله عنه ، كان يراعي حياءه ويقدره له ، فكان يختصه بما لا يفعله مع الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

---

(١) يعني يوليه إمارة .

(٢) صحيح مسلم (١٨٢٥) .

(٣) أي الأرض

(٤) يعني السماء .. ولا بد لطالب العلم ودارس الشريعة أن يحذق لسان العرب ، ومن ذلك بابُ الألوان ، حتىٰ لا يقع في الغلط فيحملَ كلام العرب علىٰ معهود الناس اليوم ، فيجور في التصور والحكم ، فيعرف ما يقصدون بالدُّهمة والسواد والخُضرة والزُّرقة ، وهذا باب شريف جليل القدر .

(٥) المسند (٧٠٧٨) .

قالت أمنا الصديقة عائشة ﵂:

جاء أبو بكر يستأذن علىٰ رسول الله ﷺ وعليه مِرْطُ أم المؤمنين، فأذن له، فقضىٰ إليه حاجته، ثم خرج، فاستأذن عليه عمر، فأذن له، وهو علىٰ تلك الحالة، فقضىٰ إليه حاجته، ثم خرج، فاستأذن عثمان، فاستوىٰ رسول الله ﷺ، فقال لعائشة: «اجمعي عليك ثيابك»، فأذن له، فلما خرج قالت له عائشة: ما لك لم تفزع لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان؟ فقال: «إن عثمان حَيِيٌّ، ولو أذنت له علىٰ ذلك الحال لخشيت أن لا يبلغ في حاجته»[1].

ولذلك جاء في روايةٍ بإسناد مرسل قوي[2] أن عليا ﵁ لما استشار النبي ﷺ في ذلك الزواج، قال له:

فقال: "لا، فاطمة مُضغةٌ مني، ولا أحسِب إلا أنها تَحْزَن، أو تَجْزَع".

فقال علي ﵁: لا آتي شيئًا تَكْرَهُه.

ولعلَّ هذا الباب من النظر إن استقام يكون رِدْءًا[3] لما ذكره الأئمة في شرح هذا الحديث من أسباب منعه ﷺ جمع علي ﵁ زوجًا أخرىٰ مع بَضْعَتِه المباركة ﵉، فيكون في هذا لَحْظٌ للشرع والطَّبْع معًا، وعلمُه ﷺ بخلائق ابنته المباركة ومعرفته بما تطيق وما لا تطيق، والله أعلم.

(١) مسند أبي يعلىٰ ح (٤٤٣٧) بسند صحيح.

(٢) في المستدرك ٣/١٥٨.

(٣) مُعين مناصر.

ثم إليك شاهدًا آخر:

عن سهل بن سعد، قال: جاء رسولُ الله ﷺ بيتَ فاطمةَ، فلم يَجد عَليًّا في البيت، فقال: «أينَ ابنُ عَمِّك؟» قالتْ: كان بيني وبينَه شيءٌ، فغاضَبَنِي، فخرج، فلم يَقِلْ[1] عندي، فقال رسول الله ﷺ لإنسانٍ: «انظر أين هو؟» فجاء فقال: يا رسول الله، هو في المسجد راقد.

فجاء رسول الله ﷺ وهو مُضْطَجِعٌ، قد سقط رداؤه عن شِقِّه، وأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه، ويقول: «قُم أبا تراب! قم أبا تراب»[2].

فأعِد قراءة هذا الحديث الشريف وأدِرْ فيه بصيرتَك تُكسَ نورًا وبَهاءً!

هذا رسول الله ﷺ يسأل ابنته عن زوجها، فتجيبه عليها السلام باللفظ الموجز، والعبارة المقتصدة، وهو أبوها، والأب مَظِنَّة التوسُّع في البث، والمُؤَازَرةِ عند الاختلاف، لاسيما وهي تخبر أنه غاضَبَها!

ولكنها أسْدَلَتْ على كلامها حجابَها الشريف الذي لا يشفُّ بالقيل والقال، والتوسُّع في المقال!

ولم يسألها سيدي ﷺ عن سر المغاضبة، بل ترك كلامَها حيث هو في حِجَابه مستورًا لا يكشفه بوحٌ ولا سؤال، وهذا رضًا منه ﷺ بذلك الخلق، وإعانةٌ لها على التلبس به!

وهذا يدل على أنها استقتْ هذا منه هو ﷺ وربت عليه، فليس لها ما لغيرها

(١) تعني نومة القيلولة.

(٢) صحيح البخاري ح (٤٤١).

من رُعُونات البيوت وأخلاقها!

ثم إنك ترىٰ أنه ﷺ لم يَسْتَنْبِئ عليًّا رضي الله عنه عما وقع بينَه وبين ابنتِه، يُوصِدُ منافذَ الشَّرِّ، ويقطع أبوابَ الخلاف ﷺ.

ثم هو يعلم جلال قدرَ عليٍّ وسموَّ أخلاقه، فخَلَّاه ودينَه وخُلُقَه ينهضان به في مشهد الزوجية بالعقل والحكمة والرحمة والمحبة، فلم يُدخل نفسَه فيما شَجَر بينهما عليه صلوات الله وسلامه!

وفي هذا منقبة شريفة لعلي رضي الله عنه.

حسبي كلمة!

وهذا يتجلى حين أرسلنها أزواج النبي ﷺ لتكلمه ﷺ في شأن أم المؤمنين عائشة ﵂، فكانت على ذلك الصراط الفذ لا تُغَادِرُه.

ففي الأدب المُفْرد[1] أن عائشة قالت: أرسل أزواج النبي ﷺ فاطمة إلى النبي ﷺ، فاستأذنتْ والنبي ﷺ مع عائشة ﵂ في مِرْطِها، فأذِن لها فدخلَتْ، فقالت: إن أزواجك أرسلنني يسألنك العدلَ في بِنت أبي قُحافة، قال: «أيْ بُنَيَّة! أتحبين ما أُحِبُّ؟» قالت: بلى، قال: «فأَحِبِّي هذه»، فقامت فخرجت فحدثَتْهُم[2]، فقُلن: ما أغنيتِ عنا شيئًا، فارجعي إليه، قالت: والله لا أكلمه فيها أبدا. الحديث..

وهذا موطنُ جلالٍ ونور، ألا ترى إلى ذلك القلب الذي لا يحتاج في الدلالة على الخير غيرَ الكلمةِ والكلمتين، ثم يغدو بهما لا يجاوزهما، ولا يتعدَّاهما، فإذا ما رُوجعتْ ﵂ تعتصم بتلك الإشارة اليسيرة: "فأحبي هذه"!

وتفهم منها تركَ الحديثِ في هذا الأمر بغير ما يُحِبُّ النبيُّ ﷺ، وهو ولا شكَّ يحب زوجَه عائشةَ ﵂، فعلمت من فحوى خطابه ﷺ أن لا تسعى في مسلك زوجاته اللائي أرسلنها، فقالت: والله لا أكلمه فيها أبدا.

(١) (٥٥٩). وأصل الحديث في صحيح البخاري ح ٢٥٨١ غير أني آثرت هنا رواية الأدب المفرد للتصريح بكلام فاطمة ﵂.

(٢) كذلك هي بالميم في الكتاب. وهي متوجهة.

وهذا لا يكون إلا في قلبٍ توقَّد فيه سِراج المحبة، فليس يحتاج في الأمر والنهي إلىٰ غير اللفظة الموجزة، والإشارة الدالة.

وتلك المُسَارَعَةُ إلىٰ طاعة رسول الله ﷺ في شأنٍ خافتٍ عن الناس، تدل الإنسان علىٰ ما وراء ذلك من مُسَارَعَةِ ذلك القلبِ وهَرْوَلَتِه إلىٰ ربه سمعًا وطاعةً وإخباتًا وذُلًّا، **ولا يُسْرِع قلبٌ إلىٰ الامتثال إلا بقدر حظه من النور.**

وهذا يدنيك من فهم قوله تعالىٰ في النهي عن الخمر:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

فقد شهد القرآن المجيد في هذه الآيات علىٰ شَرَفِ قلوبِ الصَّحَابة ومَحَبَّتِهم العاليةِ لله ورسوله ﷺ، فلم يكونوا في حاجةٍ إلىٰ وعيدٍ أو تهديدٍ أو ذِكْرِ العذاب الشديد، أو نَتْقِ جبلٍ فوقهم، كحال بني إسرائيل، لينخلعوا عن شُرب الخمر!

بل هي الكلمة المفردة ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، والإشارة البليغة التي جاءت في صورة الاستفهام: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]!

لأنَّ المحبَّ يفقه عن حبيبه الكلمةَ المفردة، وتكون حَسْبَه نهيًا أو أمرا!

ومن علم العرب، ونفوذَ الخمر في أعصابهم، وتعَلُّقَهم بالشراب غَبُوقا

وصبوحا[1]، علم معنىٰ أن يسرع الصحابة ﷺ إلىٰ الإجابة والانخلاع من ملابستها، لمجرد نزول آية!

وبعضهم كان يمسك حين بلوغه قِداح الخمر، فما جرع منها قطرة! بل قاموا جميعا يُريقون الدِّنانَ والجِرَارَ سِراعًا في غير ريْثٍ ولا كسل، ﷺ وأرضاهم.

(١) الغبوق شراب العشي، والصبوح شراب الصباح.

الحياء المفارق

«اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي ، اللَّهُمَّ فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ ، وَطَهِّرْهُم تَطْهِيْرا» .

جَمَعَتْ فاطمة عليها السلام إلىٰ شَرَفِ النِّسبة والنَّسَبِ والقَرَابَةِ ، خِصالَ الخير أجمعَ التي تكون في امرأة صالحة .

وقد شربت بركات أمها حتىٰ تضلَّعت[1] ، واستقامت خَلْفَ أبيها سَيِّدِ المرسلين لا تُخطئ مشيتُها مِشْيَتَهُ ﷺ[2] جسدًا وقلبًا ، ومُتابعةً وحُبًّا .

وقد مر بنا شواهدُ ناطقةٌ بفصاحتها القاصِدة ، وإِخبَاتِها المُنِيب ، وحنانِها الوارفِ ، وشَجَاعَتِها الباسلة ، وزُهْدِها الأعلىٰ ، واعتزالِها الناسَ إلا في الخير ، وإِسْدَالِها سترَ السكينة من حولها ، فلا تلتفت إلىٰ دنيا ولا تخالط في غير خيرٍ أهلَها .

وينبض في ذلك كُلِّه حياءٌ شديدُ الهيبة ، يكسو كل أفعالها وأقوالها بهاء فريدا .

وهو حياء مُفَارِقٌ يُفَسِّر لك كثيرا من شأنها ، كَقِلَّة حديثها ، وخُفُوت ذِكر ما يتعلق بها في بيتها وشأنها ، وإنما يُذكَر هذا ذِكْرًا مُجْمَلًا ، فيه الإشارة العابرة واللمحة الخاطفة في غير تفصيل .

---

(١) التضلع الامتلاء شبعا وريًّا .

(٢) في حديث يأتي معنا إن شاء الله أن مشيتها كانت مثل مشية النبي ﷺ . وهنا جعلت المشابهة في حركة الجسد وحركة القلب معا .

وذلك أنها كانت عليها السلام لا تَغْشَىٰ الناسَ ولا تُخَالطهم، بل كان خروجها إنْ خرجت ـ وقَلَّما خرجت ـ إلىٰ حيث يكون أبوها سيد الأولين والآخرين ﷺ.

وقد كان بأبي وأمي هو يزورها ولا يُحوجها إلىٰ الخروج، وكان عليٌّ عليه السلام يكفيها مُؤْنَةَ الخارج، ويجعل حاجة البيت من السوق وغيره إلىٰ أمه فاطمةَ بنت أسد، وكان يوصي أمه فيقول لها: اكفي فاطمةَ الخِدمة خارجًا، وتكفيك هي العملَ في البيت، والعجنَ، والخُبز، والطَّحن[1].

وقد مر بنا عندما لَبِسَها الهم لترك النبي ﷺ يوما زيارتها؛ أنها أرسلت زوجها عليا رضي الله عنه، ومكَثَتْ هي في البيت.

ويوم كان النبي ﷺ يذهب لرؤية الحسن أو الحسين فيجلس بفناء الدار؛ كانت تكون بدارها لا تخرج، وتُرْسِل إليه أحدهما، عليهم جميعًا السلام.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما رأيت حَسَنًا قطُّ إلا فاضت عيناي دموعًا؛ وذلك أَنِّي خرجت مع رسول الله ﷺ في طائفةٍ من النهار، "لا يكلمني" ولا أكلمه، "حتىٰ جاء سوقَ بني قَينُقَاع مُتَكِئًا علىٰ يدي، فطاف فيها ثم انصرف حتىٰ أتىٰ خِبَاء فاطمةَ، فجلس بفناء بيتها فاحتَبَىٰ، فقال: أين لُكَع[2]؟ ادعُ لي لُكَعًا ـ يعني حَسَنًا ـ "فحَبَسَتْه أمه شيئا[3]، فظننتُ أنها تحبسه لِأَنْ تَغْسِلَه وتُلبسه سَخَابًا[4].

فلم يلبَثْ أن جاء يسعىٰ وفي عنقه السَّخَابُ، "فقال رسول الله ﷺ بيده

(١) معرفة الصحابة لأبي نعيم (٦/٣٤٠٩).

(٢) لفظة دلال هنا للصغير. ومتىٰ قيلت في حق كبير كانت تنقيصا من عقله أو خلقه.

(٣) يعني أخرته بعض الوقت تجهزه وتطيبه.

(٤) السخاب: قلادة من خرز أو قرنفل وغيره، وليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شيء. النهاية (ج٢/ص٨٨٤)

هكذا"، فقال الحسن بيده هكذا[1] حتىٰ عانقه وضمَّه إلىٰ صدره، وقبَّلَه.

ثم جعل رسول الله ﷺ يفتح فاه، فيُدخل فاهُ في فِيه، ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم إني أُحِبُّه فأَحِبَّه، وأَحْبِبْ مَن يُحِبُّه ـ ثلاث مرات ـ قال أبو هريرة: فما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من الحسن بن عليٍّ بعد ما قال رسول الله ﷺ ما قال[2].

وما يشتمل عليه هذا الحديث من فوائدَ ومَعَانٍ يقتضي فصلًا تامًا يُشْبِع الكلامَ في بيان بعض ذلك الجلال والجمال من تعامله ﷺ مع صحابته وآل بيته، وما فيه من حنانٍ غامرٍ وحبٍّ ناضر، وما كان عليه الصحابة من صِدْقِ المحبة وصفاء القلوب.

ثم فيه ما كانت عليه فاطمة عليها السلام من الاكتفاء بالدار، والبُعْد عن البروز للناس، إلا في ضرورةٍ محوجة.

وهذا كان حالَها رضي الله عنها، تُسدل علىٰ نفسها سُدُولَ الحياء، حتىٰ في طلبها شيئًا احتاجت إليه وقد أضرَّت بها الخدمة، وقد تقدم معنا هذا يوم ذهبت إلىٰ رسول الله ﷺ تريد سؤاله خادما يعينها علىٰ لَأْوَاء الخدمة، فلما ذهبت استَحْيَت:

عن عليٍّ عليه السلام أنَّ رسول الله ﷺ لما زوجه فاطمة بعث معها بخميلة ووسادةٍ من أَدَمٍ[3] حشوها ليفٌ وجَرَّتين ورَحَايَيْن وسِقاءً.

قال علي لفاطمة: والله لقد سَنَوْت[4] حتىٰ اشتكيت صدري وقد جاء اللهُ

(١) يعني فتح ذراعيه حنانا عليه وفرحا به ﷺ.
(٢) في الصحيحين والمسند وغيرهما، انظر تخريجه في الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (١١/٣٣٢).
(٣) يعني جلد.
(٤) أي استقيت وحملت الماء.

أباكِ بسببٍ فأْتِيه فاستخدميه[1].

فقالت: وأنا والله لقد طحنت حتىٰ مَجَلَتْ يداي.

فذهبتْ إليه فاستحيت أن تُذَكِّرَه ذلك.

فقال ﷺ: ما جاء بكِ؟

قالت: جئتُ أُسَلِّم عليك يا رسول الله!

فرجَعَتْ! فقال لها علي: ما فعلتِ؟

قالت: استحييتُ أن أذكر له شيئا!

إلىٰ آخر الحديث.

وكانت في هيأتها ومشيتها وحديثها تتمثل النبي ﷺ، وتأخذ بأخلاقه وصفاته وهديه وشمائله.

وقد لحظت أمنا رضي الله عنها هذا؛ فعن عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين، قالت: ما رأيتُ أحدًا كان أشْبَهَ كلامًا وحديثًا برسول الله ـ ﷺ ـ من فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها، فقبَّلها، ورحَّب بها، وكذلك كانت هي تصنع به[2].

ومُذْ جاءتها البشارة من رسول الله ﷺ بأنها أولُ أهله لُحُوقًا به، فَطَمَتْ فاطمة نفسَها عن الناس، وصامَت عن الدنيا صيامًا لا ينقطع، وهي ترتقِبُ موعد

(١) أي اطلبي خادما.

(٢) حديث حسن رواه أبو داود ح ٥٢١٧، والترمذي ح ٣٨٧١.

الرحيل واللقاء.

ولقد شغلها في ذلك أمرٌ أهَمَّها، فتفكرت لشدة حيائها في سبل الاستتار التي تحفظها من أعين الناس بعد موتها وفي كفنها!

واهتدت بعد محاورة مع أسماء بنت عميس إلىٰ الوصاة بصنع نعش خاص لها يشبه الهودج[1]، تستتر به عن الناس كلهم.

فقد ذكر حافظ المغرب أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب[2] بسنده عن أم جعفر ـ أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت لأسماء بنت عميس: يا أسماءُ! إني قد استقبحتُ ما يُصنع بالنساء، إنه يُطْرَحُ علىٰ المرأة الثوبُ فيصفُهَا!

فقالت أسماء: يا بنتَ رسول الله، ألا أُريكِ شيئًا رأيتُه بأرضِ الحبشة؟ فدعت بجرائِدَ رطبةٍ فحَنَتْها، ثم طرحت عليها ثوبًا.

فقالت فاطمة: ما أحْسَنَ هذا وأجملَه! تُعْرَف به المرأةُ من الرجال!

فإذا أنا مِتُّ فاغسليني أنت وعليٌّ، ولا تُدخلي عليَّ أحدًا.

فلما تُوُفِّيت جاءت عائشة تدخل، فقالت أسماء: لا تدخلي. فشكتْ إلىٰ أبي بكر ذلك، وأنها جعَلَتْ لها مثل هَوْدَجِ العَرُوس، تحسب أن هذا من فعل أسماء لا بوصية من فاطمة!

فجاء أبو بكر، فوقف علىٰ الباب، فقال: يا أسماءُ! ما حملكِ علىٰ أن منعتِ

---

(١) ما يوضع للمرأة فوق الناقة، تجلس فيه فلا يراها أحد، وكانوا يصنعونه من العصي ثم يضعون فوقه الخشب.

(٢) ١٨٩٨/٤

أزواج النبي ﷺ أن يدخُلنَ على بنت رسول الله ﷺ، وجعلتِ لها مثل هودجِ العروس؟!

فقالت: أمَرَتْني ألا يدخل عليها أحد، وأَرَيْتُها هذا الذي صنعتُ وهي حية، فأمرتني أن أصنع ذلك لها.

قال أبو بكر: فاصنعي ما أمرتكِ. ثم انصرف، فغسَّلها عليٌّ وأسماء.

ثم عقب أبو عمر رحمه الله على هذا الخبر فقال: فاطمة رضي الله عنها أولُ من غُطِّيَ نعْشُها من النساء في الإسلام على الصفة المذكورة في هذا الخبر.

وبعض الأخبار كهذا الخبر؛ تجعل القلم متلعثمًا، فيكون حسنًا بالكاتب أن يكسر سِنَّ قلمه، ولا يطيلَ الكلامَ في تقرير بَدَاهةِ فساد الزمن الذي نحياه، وتقَحُّمِ البشرية سُعُرَ الضلال مُحَادَّةً لكل ما يكون به الإنسان إنسانًا بحق.

وأنت إذا ذهبتَ لتصف أنوار الشمس وسموهَا وارتفاعها عن الأرض؛ فهذا حَسْبُك في الدَّلَالة على أضدادِ ذلك ظَلَامًا وسُفُولًا واتِّضاعًا!

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد

هرولة

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

لم يكن هنالك توسع في الإخبار عن عبادة فاطمةَ عليها السلام، لأمور كثيرة، مثل العُمُر الصغير، وانجِمَاعها عن الناس، وقِلَّة مروياتها، غير أن ما بدا من أفعالها وهرولتها في ميدان السمع والطاعة؛ دالٌّ على ما بطن من أمرها، وأنه كان لها قدم صدق راسخة في العبادة والتَّبَتُّل.

وقد مر بنا اكتفاؤها بالعبارة الواحدة: "**فَأَحِبِّي هذه**" للكفِّ عن مفاتحة النبي ﷺ في أمر أُمِّنَا عائشة، واختصاص الصحابة يومها بالهدايا، وامتناعها عن إجابة سؤالهن للذهاب إليه ﷺ مرة أخرى.

وقد روى عبد الله بن عمر رضي الله عنه[1]، أن رسول الله ﷺ أتى فاطمة رضي الله عنها، فوجد على بابها سِتْرًا، فلم يدخل.

قال: وقَلَّما[2] كان يدخل إلا بدأ بها، فجاء عليٌّ رضي الله عنه، فرآها مهتمةً، فقال: ما لك؟ قالت: جاء النبي ﷺ إليَّ فلم يدخل، فأتاه عليٌّ رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله! إنَّ فاطمةَ **اشتدَّ** عليها أنك جئتَها فلم تدخل عليها.

(١) الرواية بذلك في البخاري ٢٦١٣ وبألفاظ مغايرة في سنن أبي داود ح ٤١٤٩ وغيره.

(٢) العرب تصف الشيء بالقلة وتريد به النفي، ولهذا شواهد كثيرة. فمعنى كلمته قلما النفي.

قال: «إني رأيت على بابها سِترًا مُوَشِّيًا[1]، وما أنا والدنيا؟ وما أنا والرَّقْمُ[2]»؟

فذهب إلى فاطمةَ فأخبرها بقول رسول الله ﷺ، فقالت: قل لرسول الله ﷺ: ما يأمرني به، ليأمرني فيه بما يشاء. قال: «قُل لها، فلْتُرسل به إلى بني فلان، أهلِ بيتٍ بهم حاجة».

وهذا حديث جليل القدر، فقد **اشتد** عليها مجرد الترك النبوي، وتلبَّسَها همٌّ لانصراف النبي ﷺ وتَرْكِه زيارتها، وما كانت فعلتْ شيئًا مُحَرَّمًا ـ حاشاها ـ، ولكنه كان يُرَبِّيها عليه صلوات الله وسلامه على تمام الزُّهد، والتَّخَلِّي عن أقل البَهْرَج وأدنى الزينة، والأَخْذِ بمعالي الأخلاق المُفَارقةِ لما عليه حال المتعلقين بحطام الدنيا، والإيثار بما معها وقصدها أهل الحاجة والفقر.

فلما علمتِ الأمرَ، ما ناقشَتْ ولا تَعَلَّلَت، والأنثى جُبِلَتْ على حب التزيُّن والتزيد فيه، وما قالت: لم أفعل حرامًا، ولا ركبتُ مخالفةً، بل أَذْعَنَتْ إذعانَ المحب المُخبت، وهرولت إلى طاعته ﷺ وجعلت الأمر كله له.

والتي تُخْبِت بالذِّلة المؤمنة في ذلك المقام الذي لا مخالفة فيه ـ ولكنْ ترك الأولى اللائق بها ـ كيف يكون حالها مع الأمر والنهي، وسَبْقُها فيما يُقَرِّبها إلى رب العالمين سبحانه وبحمده؟!

والتي "يشتد" عليها مجرد الترك النبوي، حتى غمرها الهم المُقعد، كيف يكون حالها اتقاءً لمحارم الله واجتنابًا لنواهيه؟

---

(١) مزُيَّنًا.

(٢) الرَّقْم: النقش الذي كان في السِّتار.

وهذا يفضي بنا إلىٰ الحديث عن فدك وما كان بينها وبين الصديق رضي الله عنهما، لبيان أن مَوْجِدَتَها لم تكن لمخالفةِ النصِّ النبوي أو لمعارضته حاشاها ـ عليها السلام.

فَدَك الصِّدِّيقين

وتلك قصة شريفة متىٰ خَلَصَ الإنسانُ إليها بعيدًا عن ألواثِ النفوس، وغبار الدنايا، وهي بعدُ مُنبئةٌ عن صفاء تلك النفوس المباركة التي جعلها الله تعالىٰ تجَلِّيًا لمعنىٰ العبودية في هذه الدنيا.

قد أضأتُ لك آنِفًا قَبَسًا من شمائل السيدة المباركة فاطمةَ بنتِ سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم، فرأيتَها قانتةً علىٰ أرشدِ ما يكون القنوت في المرأة، مُقْبِلةً علىٰ ربها، زاهدةً كأعْظَمِ ما يكون الزهد في الأنثىٰ: سُمُوًّا عن الدَّنَايا، وفراغًا من أثقال الطين، وصَخَب القيل والقال، والاستطالة باللسان في ميادين الجدال.

فإذا قَرَّ في نفسك هذا الأصل الشريف، فاصحبه ـ آنَسَك الله بنوره ـ بمعرفة الرجل الذي كان تجليًا للصِّديقيَّةِ، ومثالًا للحب حين يَبْرَأُه الله رجلا، ويصطفيه ليكون أخص الناس برسول الله ﷺ، وهو إمام الصديقية، ورأس الأولياء بعد النبيين والمرسلين، أبو بكر رضي الله عنه.

أصل نفيس

ولا بد هنا من الاستفاضة في تحرير هذا الأصل وبيان اطِّرَاده في حياة الصِّدِّيق رضي الله عنه منذ البدء حتىٰ المنتهىٰ.

وأنتَ متىٰ أدرتَ نظرك في نفسِ ذلك السيد رضي الله عنه، وجِئتَه من أي جهة من جهاته؛ فلن تجد له إلا نعتا واحدًا لا ينشغل عنه، ولا يعرف غيره، ولا يعيش إلا به، فهو قُوت قلبِه وعَصَبُ حياته، وعَمُود وجوده: **(الحب)**.

ـ ولم يكن باب الصِّدِّيق رضي الله عنه في معاملته النبيَّ ﷺ وما يتعلق به خبرًا وحالًا؛ بابَ الحجاج والاستدلال والمناظرة لحاله أو لشأنه ﷺ، بل كان يحتج به هو، ويجعَلُه هو وحدَه معيارَ الصدق ﷺ.

يصخب المشركون بثرثرة الشك صبيحةَ المعراج، فيقول لهم في هدأة اليقين: إن كان قال فقد صدَقَ[1].

وما احتج علىٰ الفاروق رضي الله عنه عندما ثقل عليه عهد الحديبية، ولا أورد الدلائل الشرعية والعقلية علىٰ صحة خياره ﷺ، بل أعاده إلىٰ ميثاق الشهادة بالنبوة والإيمان به رسولًا: أيها الرجل! إنه رسول الله وليس يعصيه وهو ناصره فاستمسك بغرزه[2].

(١) الشريعة للآجري ح (١٠٣٠).
(٢) البخاري ح ٢٧٣١، وغيره

وهذا باب فريدٌ في الحب سبق به الصديق ﷺ سبقًا بعيدً؛ فهو رجُلٌ فُطِر علىٰ حب الله ورسوله ﷺ، ورُصِفت لبنات حياته من ذلك الحب، فكان بنيانه شامخًا لا ينفذ منه وسواس مخالفة ولا يطمع شيطان أن يظفر منه بهمهمةٍ تتقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ بحرف.

وهذا أصل مطرد في شأنه كله، مهما كانت قوة المُعَارِض، وشدة الجواذب، ولو في الأمر الجِبِّلي الذي فَطَر الله تعالىٰ الناسَ عليه!

ﷺ، ما أعظمَ حُبَّه، وما أصْدَقَ حُبَّه، وما أَجَلَّ صدقه!

يأتيه النبي ﷺ في بدء الإسلام فيعرض عليه الإسلام، فيتقدمه قلبه إلىٰ المبايعة، وكأنَّ الناسَ حين يبايعون علىٰ الإسلام يَبْسُطُون جميعا أيديَهم، ولكنَّ أبا بكر يبسط قلَبه!

ثم تفور تَنَانِير[1] العداء في زوايا مكة، وتثور حمِيَّة الجاهلية في أصحابها، ويرصدون الغوائِلَ لمن آمَن، وهو علىٰ صِراطه لا يُبالي، يحمله الحب، ويَشْغَله الحب عن كل شيء!

فإذا استَأْنَاه[2] النبي ﷺ حين عزم مُسَارِعًا كعادته علىٰ طاعة الله ورسوله ﷺ حين أذن لأصحابه بالهجرة؛ سكَنَ ولزِم وصَاة النبي ﷺ.

وفي الهجرة نجاةٌ من الأذىٰ وسعير الكيد والقتل! ولكنه علىٰ صراطه لا يبالي، يحمله الحب، ويشغله الحب عن كل شيء!

(١) جمع تَنُّور.

(٢) طلب منه الانتظار والتأني.

ثم تفغر قريشٌ فاها[1] بسُعَار العَداء، ويكيدون النبي ﷺ يريدون قتْلَه بأبي هو وأمي، بالمكْرِ الكُبَّار، فينجيه الله تعالىٰ ويكون قصده إلىٰ صاحبِه الصِّدِّيق، فيخبره بشأن الهجرة، فلا يتَلَعْثَم مترددا، ولا يَتَلَبَّث مُرْتَجِفًا من الخوف، بل يبكي فرحًا، ويشغله شيء واحد: هو صحبة النبي ﷺ!

وهو يعلم أن صحبته النبي ﷺ تعني المرور من حَلْقِ السيوف وحَدَقَةِ الموت المُتَرَبِّص!

ولكنه علىٰ صراطه لا يبالي، يحمله الحب، ويشغله الحب عن كل شيء!

وكان عجيبًا في حبه، فكأنه لا يقْنَع بخدمته النبي ﷺ، بل أَخْدَم البيتَ كُلَّه للنبي ﷺ، وكأنه ترجمة بيت عروة بن الورد:

أُقَسِّمُ جسمي في جسومٍ كثيرةٍ ❦ وأحسو قَرَاح الماء، والماءُ باردُ

بالمعنىٰ الشريف الأعلىٰ، لا المعنىٰ المجرد الذي قصده عروة.

ثم يكون منه في الهجرة ما يكون من أفعال وأقوال ومشاعر كلها ترجمان حبه الصادق السابق الذي لا يُلحَق، رضي الله عنه.

ثم تمضي قوافل الزمن، ويخوض رأس المنافقين في قَالةِ السوء عن الصِّدِّيقة الطَّهُور أمنا رضي الله عنها، ويموج بالمؤمنين همٌّ لافحٌ، وهنالك في نفوس المنافقين قَيْظٌ يَقْطُر إفكًا، وهو علىٰ صراطه، لا يتقدم النبيَّ ﷺ بكلمة، وإنما يجلس هنالك في ظلال صَبْره ومَعِيَّة مُصْحَفِه.

(١) استعارة بمعنىٰ شدة العداء.

تقول أمنا رضي الله عنها[1]: ورجعتُ إلىٰ أبويَّ فقلتُ: أما اتقيتُما اللهَ فيَّ وما وصلتما رحمي ؟! يتحدث الناس بهذا ولم تُعْلِمَانِي!

فاستَعْبَرتُ فبكيتُ ، فسمع أبو بكر صوتي وهو فوق البيت يقرأ ، فقال لأمي: ما شأْنُها ؟ فقالت: بلَغَها الذي ذُكِر من شأنها! ففاضتْ عيناه ، فقال: أقسمتُ عليكِ يا بُنَيَّةُ إلا رجعتِ إلىٰ بيتِكِ ، فرجعتُ.

والموطن موطنُ زلزلة ، وهو رجل عربيٌّ مسلم ، وشمائل العرب في الغيرة ما قد علمتَ ، لكنه في غيْبِه ومَشْهَدِه لا يلفظ كلمةً تتقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ ، **فكأنَّ أبا بكر رضي الله عنه دوما في معنىٰ الاستئذان قبل القول والعمل ، متىٰ وجد إذنًا تكلم ، فإن لم ، بقي في خفارة[2] تسليمه لا يفارق سجدة العبودية أبدا!**

ثم تمر الأيام ولا يُعرف حَرفٌ في رواية يَذكر عن أبي بكر كلامًا إلىٰ النبي ﷺ ، أو شكوىٰ ، أو عجلةً تستبق الوحي ، وحاشاه!

حتىٰ إن ابنته لتلتمس منه في الموقف العصيب والمِحْنَة الكَأْدَاء[3] كلمةً تشهد لها وتَذُبُّ عنها بين يدي رسول الله ﷺ وقد قال: أمَّا بعدُ يا عائشة! إن كنتِ قارفتِ سوءا أو ظلمتِ ، فتوبي إلىٰ الله ؛ فإن الله يقبل التوبة من عباده.

قالت رضي الله عنها: فالتفتُّ إلىٰ أبي ، فقلت: أَجِبْه!

قال: فماذا أقول ؟!

---

(١) المسند (٢٤٣١٧) وصحيح البخاري (٤٤٧٩) ، وغيرهما ، والقصة معروفة.

(٢) حراسة وصحبة ومعية.

(٣) الصعبة.

ما قال كلمة، ولا نطق بحرف، ومثله لا يقول إلا الصدق، والبواعث هنا جَمَّةٌ لا تُدفَع، والنفسُ النفسُ، يعتمل فيها ما يعتمل، ولكنه لائذٌ بعبوديته متدَثِّرٌ بصمته المحتَسِب المُوقِن، رضي الله عنه.

ثم لما نزلتِ الآياتُ المباركاتُ ببراءة الصديقة رضي الله عنها، وعلم أنَّ ممن رددوا قالة السوء مِسْطحًا رضي الله عنه، فحلف الصِّدِّيق رضي الله عنه أن لا يعود عليه بنافعةٍ أبدا، وكان يُنفق عليه، وقال: واللهِ لا أُنفق علىٰ مِسْطَحٍ شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال.

فأنزل الرحيم الودود سبحانه وبحمده: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ﴾ [النور: ٢٢].

فقال أبو بكر: بلىٰ واللهِ، إني لَأُحِبُّ أن يغفر لي، فرجَعَ إلىٰ مِسطحٍ نفقَتَهُ التي كان يُنفِق عليه، فقال: واللهِ لا أنزعها منه أبدًا[1]

والتقيُّ مُلجَمٌ يُوثِقُه[2] دينه، ويكون كالسراج المُعَلَّق في السماء، لا يتهاوىٰ، ولا يترك وُصْلَته التي تُبقيه مرتفعًا هنالك في مراتب السمو، فكيف بالصِّدِّيق رضي الله عنه!

كانت آيةٌ واحدةٌ من رب العالمين حَسْبَه، في ترك ما أقسم عليه، وإبقاء النفقة مُطْلَقَةً أبدًا ما كان حيًّا، لا يغيرها حال، ولا عارِضٌ مهما كان!

وهذا شأن عظيم جدا؛ لأن الإنسان يعرِض له ما يعرِض، والحياة ميدان

(١) قال الإمام القدوة عبد الله بن المبارك رحمه الله: هذه أرجىٰ آية في كتاب الله تعالىٰ.

(٢) يقيده.

تغدو فيه الأحداث وتروح، ولكنَّ الصديق ﷺ يحفظ دينَه من تقلُّبَات الحياة ونوازعِ النفوس، ويُبقيهِ ثابتًا راسخًا لا يتلوَّن تلونَ الذين ارتخت عزائمهم وراغوا رَوَغانَ الثعالب، أما هو، فسابقٌ صادقٌ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ثم.. تأتي الزلزلة الكبرىٰ والابتلاء الأكبر برحيل سيدنا رسول الله ﷺ عن دنيانا إلىٰ الرفيق الأعلىٰ:

وتَسَامَع الناسُ بالخبر فكانوا كما قال الشاعر القديم[1]:

خبـــرٌ مـــا! نابنـــا! مُصْـــمَئِلُّ ❦ جـــلَّ! حتـــىٰ دقَّ فيـــه الأجـــلُّ!

فيعتصم أبو بكر ﷺ بربه، ويُقيمه إيمانُه علىٰ منبر التثبيت، فيقول: مَن كان منكم يعبُدُ مُحَمَّدا؛ فإنَّ مُحَمَّدًا ـ ﷺ ـ قد مات، ومَن كان يعبُد اللهَ؛ فإن الله حي لا يموت.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قالت أمنا ﷺ: واللهِ! لكأنَّ الناسَ لم يكونوا يعلمون أنَّ الله أنزل الآية حتىٰ تلاها أبو بكر ﷺ، فتلقاها منه الناس، فما يسمع بشر إلا يتلوها.

وهو مشهد يتخطَّفُ الناسَ فيه حزنٌ مستبدٌ لا يدع فيهم غير الذهول الشارد،

(١) من شعر ابن أخت تأبط شرا كما استظهره شيخ العربية أبو فهر ﷺ في كتابه الفذ: نمط صعب. والمصمئل العظيم الجليل الذي كلما أنعمت فيه النظر هالَكَ من شدته!

والهمِّ المستطير!

لكنَّ الله تعالىٰ حلَّاه بالصدق، وأحياه بميراث النور في قلبه وحيًا ومتابعةً، وكان قيامه في ذلك المشهد النازف دمعًا وألمًا؛ تجليًا لمعالم الإيمان في قلب الصديق رضي الله عنه، وبيانًا حيًّا عن سبقه السبقَ البعيدَ المحلِّقَ في أفلاك العبودية؛ فقد قام لله سبحانه وبحمده بحقه إيمانا وتسليمًا، وقام بحق الصحبة لرسول الله ﷺ متابعةً ووفاءً وحبا!

فلو شئتَ قلتَ: هذا مشهد إيمان؛ لصدقتَ، ولو شئتَ فقلتَ: هذا مشهد وفاء؛ لصدقتَ، ولو شئَت فقلتَ: هذا مشهد حب؛ لصدقت!

ومن ذا الذي يُحسِنُ الثباتَ في مشهدٍ ارتجفتْ فيه القلوب وتداعَتْ فيه الأرواح، وذَهِل فيه الكِبار حتىٰ كأنهم من الغم والرجفة في صحراواتٍ شاسعةٍ من الحيرة الشاردةِ والأسَفِ المُبلس؟!

ثم يلي الخلافةَ رضي الله عنه، فيكلمه بعض الصحابة في تأخير بعث أسامة، وكان رسول الله ﷺ قد بعث أسامة، وأمره أن يُوطِئ الخيل نحو البلقاء، حيث قُتِل أبوه وجعفر، فجعل أسامة وأصحابه يتجهزون، وقد عسكر بالجرف، فاشتكىٰ رسول الله ﷺ وهو علىٰ ذلك، ثم وجد من نفسه راحة، فخرج عاصبًا رأسه، فقال: أيها الناس، أنفِذُوا بعث أسامة، ثلاثَ مرات.

وتُوُفِّي ﷺ، وبايع الصحابة أبا بكر رضي الله عنه وقد ولي الخلافة والأمة في حدق المخاوف؛ فإن العرب لما بلغهم وفاة سيدنا رسول الله ﷺ ارتد من ارتد منهم، ولا تُؤمَن غوائلهم[1] غدرا ومحاربة، وأسامة رضي الله عنه مع جيشه يعسكرون في

(١) شرورهم

الجرف إلىٰ المدينة.

وشَقَّ الحال علىٰ كبار المهاجرين الأولين، ودخل علىٰ أبي بكر عمر وعثمان وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد ﷺ، فقالوا: يا خليفة رسول الله! إن العرب قد انتقضت عليك من كل جانب! وإنك لا تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئا! فاجعلهم عُدَّةً لأهل الردة ترمي بهم في نحورهم.

وليس يُؤْمَنُ علىٰ أهل المدينة أن يُغارَ عليها وفيها الذَّرَارِي والنِّساء، فلو استأنيتَ[1] بغزو الروم حتىٰ يضْرِبَ الإسلام بِجِرَانِه[2] ويعودَ أهل الردة إلىٰ ما خرجوا منه أو يُفنِيهُم السيفُ، ثم تبعثُ أسامة حينئذ، فنحن نأمن الروم أن تَزْحَفَ إلينا.

فلما استوعب[3] أبو بكر كلامَهُم قال: هل منكم أحدٌ يريد أن يقول شيئًا؟ قالوا: لا، قد سمعتْ مقالَتَنا.

فقال ـ وانظر مَلِيًّا إلىٰ النبع الذي استقىٰ منه والوِرْدِ الذي صدَرَ عنه ـ والذي نفسي بيده! لو ظننتُ أنَّ السِّبَاع تأكلني بالمدينة لأنفَذْتُ هذا البعثَ، ولا بدأتُ بأوَّلَ منه!

*** كيف ورسول الله ﷺ ينزل عليه الوحي من السماء يقول: أنفذوا جيش أسامة؟!**

ثم قال في أدب باذخ: لكنْ خَصلةٌ أُكلِّم بها أسامة، أكلمه في عمر يَخلفه يقيم عندنا؛ فإنه لا غنىٰ بنا عنه! والله ما أدري يفعل أسامة أم لا! والله إن أبىٰ

(١) تأنيت وأخرت الأمر.

(٢) يعنون ثبات الإسلام ورسوخ قواعد الدولة واستقرارها. يقال: ضرب البعير بجرانه: أي بعنقه، إذا برك واستراح ومد عنقه علىٰ الأرض.

(٣) أي استمع كلامهم كله حتىٰ فرغ كل واحد من مقالته، وليس معناها فهم.

لا أُكرهه![1]

ولو أنَّ للدنيا نفاذًا إلىٰ قلبه ـ وحاشاه ـ وكان معلقا بمنصبه، لسعىٰ أول ما يسعىٰ إلىٰ صيانة حكمه، وتثبيت دعائمه، ولاتخذ درعا سابغا من التَّعِلَّات والتأويلات الباطلة، كعادة أهل الدنيا!

ثم إن الذين سعوا إليه بهذا كبار الصحابة أهل الإيمان والرضوان، فلو وافَقَهُم لكان فِعْلُه بريئًا من حظ النفس وشُبْهَة الهوىٰ، ولكنَّ له نفسًا سالمةً من هذه العثرَات، لا تعرف غيرَ صراطِ المتابعة.

ولقد جهدتُ ـ والله ـ وفاتَشْتُ الآثار في ذاكرتي فما وجدتُ له نفسًا طُلَعَة، ولا انشغالًا بالدنيا!

بل كان سمتًا فريدًا فذًّا في المتابعة التي صاغها الله فكانت رجلا ﷺ جعل خفقاتِه وأنفاسَه وحركةَ حياته دائرةً في فلك العبودية والمتابعة!

ثم انطلق في صراط صدقه يحشد الأمة يقيمهم علىٰ سنن الهدىٰ وجَدد الاستقامة، في همة تتوهج بمدد إلهي كساه عزمًا حَديدًا لا يفترُ، يؤازر قلبه الأسيف، ليتم له أمره في سياسة الناس والقيام بحق الخلافة وأعبائها.

وصِدْقُ أبي بكر ﷺ يخلع عليه قوةً حيةً ذاتَ برهانٍ يسطو بالقلوب ويستبد بالنفوس، فتخضع لبهائه خضوعَ النفس المُشرقة بالنور للحق حين يُعرَض عليها.

(١) انظر خبر هذا كله مفصلا في تاريخ دمشق لابن عساكر ٢/٥٧ وما وليها.

ولذلك نَبَذَ كلامَه ونفخَ فيه من رُوحه، فعلم القوم أنه عازمٌ على إنفاذِ بعْثِ أسامة.

ومضى أبو بكر ليُخْرِج الأمرَ من قَبْضَة الكلام إلى ميدانِ الوجود، وذهب إلى أسامة رضي الله عنه في بيته، فكَلَّمه في أن يترك الفاروق، فوافقه، فتثَبَّت منه وجعل يقول له: أذِنْتَ ونفسُكَ طَيِّبة؟! فقال أسامة: نعم.

هذا رجل مُنْخَلِعٌ من منصبه لا يكاد يبصر غيرَ الحق المحض، والصدق الخالص، ولا يستفيد من منصبه شيئًا زادَ عليه غير اتخاذِه بالأمانةِ وسيلةً لإقامة العدل، لا لإقامةِ صُرُوح النفس.

ثم أمر منادِيه ينادي: عَزْمَةٌ مِنِّي أنْ لا يتخَلَّفَ عن أسامة من كان انتُدِب معه في حياة رسول الله ﷺ، فإني لن أُوتَى بأحدٍ أبْطَأَ عن الخروج معه إلا ألحقتُه به ماشيًا!

وأرسل إلى النَّفَرِ من المهاجرين الذين كانوا تكلموا في إمارة أسامة، فغلَّظ عليهم، وأَخَذَهُم بالخروج، فلم يتخلَّف عن البعث إنسانٌ واحد!

وخرج أبو بكر نفسُه يُشَيِّع أسامة والمسلمين، ويوصيه مُوَدِّعًا: أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك، إني سمعت رسول الله يوصيك، فأنفذ أمر رسول الله ﷺ، **فإني لستُ آمُرُكَ ولا أنهاك عنه، إنما مُنفِذٌ لأمرٍ أمر به رسول الله** ﷺ.

ها أنت ترى رجلًا يلوح من حروفه وفِعَاله شيءٌ واحدٌ ليس له اسم سوى المتابعة التامة التي لا تلتفت طرفَةَ عينٍ عن سَنَن رسول الله ﷺ.

ولقد أطلتُ عمدًا لترى أن ليس هذا الذي نتحدث عنه موقفًا متعلقًا بحادث

عابرٍ، أو خُلُقًا بدا له ثم بدَّلَه أو نَسِيَه، بل هو كما ترىٰ أصلٌ مبثوثٌ في فعله وقوله كُلِّه.

فإذا ما استبان لك بعد هذا الاستطراد بشواهده المتعددة؛ استقامة هذا الأصل فيه ﵁، وتوهجه بضيائه لا يحجبه غيم هوىٰ، ولا دخائن نفس؛ علمتَ أن فعله في أمر **فدك** لم يكن نشازًا عن ذلك الأصل الذي أبنته لك، أو أنه عن شنآنٍ أو هوًىٰ عياذًا بالله.

ولقد جاءته فاطمة ﵂ في خِفارة حيائها وسموها، تلتمس ميراث رسول الله ﷺ في فَدَكَ، ومعها العبَّاس عمُّ النبي ﷺ، وهي تحسِبُ أنَّ هذا حقٌّ لها، فكان جوابُه فيها جوابَهُ الثابِتَ في كل مواقفه التي أسلفتُ لك.

❁ وإليك الخبرَ مُفَصَّلا:

عن عائشة أم المؤمنين ﵂ أن فاطمة ﵂ ابنة رسول الله ـ ﷺ ـ سألت أبا بكر الصديق بعد وفاة رسول الله ـ ﷺ ـ أن يقسم لها ميراثها؛ ما ترك رسول الله ـ ﷺ ـ مما أفَاء الله عليه (وفي رواية: تطلب صدقة النبي ـ ﷺ ـ التي بـ(المدينة) و(فدك)، وما بقي من خُمْسِ (خَيْبَر).

وفي رواية: أن فاطمة والعباس ﵂ أتَيَا أبا بكرٍ يلتَمِسان ميراثَهُما من رسول الله ـ ﷺ ـ، وهما حينئذٍ يطلبان أرضيْهِمَا من (فدك)، وسَهْمَهُما من (خَيْبَرَ)، فقال لهما أبو بكر: إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا نورثُ، ما تَرْكَنا صدقةٌ، إنما يأكل آلُ محمدٍ من هذا المال ـ يعني: مالَ الله ـ ليس لهم أن يزيدوا علىٰ المَأْكَل».

قال أبو بكر: واللهِ لا أدع أمرا رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يصْنَعُه فيه إلا صَنَعْتُه، فغَضِبَتْ فاطمة بنت رسول الله ـ ﷺ ـ فهجرت أبا بكرٍ، فلم تُكَلِّمْه، فلم تزل مُهَاجِرَتَه حتىٰ تُوُفِّيت، وعاشت بعد رسول الله ـ ﷺ ـ ستة أشهر(١).

۞ بلاء عظيم:

وعندي أن هذا الأمر الخاص كان من **أعظم الابتلاءات التي مر بها الصديق** رضي الله عنه، **وكان أنْ يلقىٰ العَدُوَّ وتتزاحَمَ السيوفُ بين يديه تَصْطَخِب في دمِهِ؛ أهونَ عنده من هذا الموقف!**

وعلة ذلك: أن هذا الرجل فُطِر قلبه علىٰ محبة النبي ﷺ محبةً ملكت عليه نفسه، وشِعَاب روحه، وخفقاتِ قلبه، فهو يُحِبُّه حبًّا جليلا، تتضاءل بين يديه النفس والدنيا والأموال والأولاد!

فليت شِعْرِي! كيف هو قلبه وقد جاءت أَحَبُّ الناس إلىٰ رسول الله ﷺ تسأله حقًّا تعتقده لنفسها، وهو المحب الوَفِيُّ، تكفيه الكلمة والإشارة ليسارع في مرضاة رسول الله ﷺ ومرضاة آله عليهم السلام!

فلو تُرك الأمر لهواه لخرج لهم من كل ماله وما يملك، وليس فدك وحدها، ولكنه يقفو أثَرَ حبيبه، ويقدم أمره علىٰ النفس والهوىٰ!

نعم! تابَع أبو بكرٍ هنا النبيَّ ﷺ وخالف هوىٰ نفسه، وليس كما يتصور مَنْ جَهِل قدْرَ الصِّديق فحَسِبَهُ فَعَل ذلك مُتابعةً للهوىٰ، ومُوَافقَةً للنفس!

(١) مختصر صحيح البخاري ح ١٣٤٥.

وفاطمة عليها السلام كانت على سمتها الشريف: قالتْ كلمتَها، وعَرَضت طلبَها، لا تَزِيده حرفا، ولا تتكلم فيه مرتين!

ظنت حقا لها، فلما قُوبلت بالخبر النبوي؛ سلمت وأذعنت، وأخذتْها مَوْجِدَةٌ، وأسدلت عليها سُتُورَ صَمْتها، وفارقت المشهدَ كُلَّه في هدوء تام، لا ضجيج ولا صخبَ ولا استطالة ولا حشد!

ففي المسند[1] من رواية أبي الطُّفَيْل لما قبض النَّبِي أرْسلت فَاطِمَة إِلَى أبي بكر:

أَنْت ورثتَ رَسُول الله أم أَهله؟

قَالَ: لَا، بل أَهله.

قَالَتْ: فَأَيْنَ سَهْمُه؟

قَالَ: إِنِّي سَمِعت رَسُول الله يَقُول: إِنَّ الله إِذا أطْعم نَبِيًّا طُعْمَةً ثمَّ قَبضه؛ جعلهَا للَّذي يقوم من بعده، فَرَأَيْتُ أَن أَرُدَّه على الْمُسلمين.

قَالَت: **أَنْت وَمَا سَمِعتَ من رَسُول الله أعلم.**

هكذا باللفظة الخاشعة والعبارة المخبتة، والكلام المحجب بحيائه!

ولم يكن هذا الموقف منه خاصًّا بالمباركة فاطمة عليها السلام، بل هذا كان رده وموقفه مع أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، حين حَسِبْن أنَّ لهن حقًّا في ميراث رسول الله ﷺ، فنهتهن الصِّدِّيقة ابنةُ الصِّدِّيق رضي الله عنها.

(١) ١/١٩١ ح١٣

فقد روت ﵂ فقالت:

أرسل أزواج النبي ـ ﷺ ـ عثمانَ إلىٰ أبىٰ بكر؛ يسأَلْنَه ثُمُنَهُن مما أفاء الله علىٰ رسوله ـ ﷺ ـ فكنت أنا أَرُدُّهُنَّ، فقلت لهنَّ: ألا تَتَّقين الله؟ ألم تَعْلَمْنَ أنَّ النبي ـ ﷺ ـ كان يقول: «لا نُورَثُ، ما تَرَكْنا صدقةٌ ـ يريد بذلك: نفسَه ـ إنما يأكل آلُ محمد ـ ﷺ ـ في هذا المال»؟! فانتهىٰ أزواج النبي ـ ﷺ ـ إلىٰ ما أَخْبَرْتُهُنَّ[1].

۞ رضاكم قصدي

ومع ثبوت النص وقيام أبي بكر ﵁ بنور المتابعة ووفاء حَمْل الأمانةِ النبوية لا يغيرها ولا يُبَدِّلها.. ذهب بقلبه الأسيف المحب لله ورسوله ﷺ، يترضىٰ فاطمة ﵂، كما ذكر الإمام الفقيه عامرٌ الشعبي بسند صحيح مرسل.

قال أبو حمزة السُّكَّرِي، عن ابن أبي خالد، عن الشعبي قال: لما مَرِضَتْ فاطمة أتاها أبو بكر فاستأذن، فقال عليٌّ: يا فاطمة! هذا أبو بكرٍ يستأذِنُ عليكِ. فقالت: أتحب أن آذنَ له؟

قال: نعم.

فأَذِنَتْ له، فدخل عليها يترضَّاها وقال: والله! ما تركتُ الدارَ والمالَ والأهلَ والعشيرةَ إلا ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ ورسولهِ ومَرْضَاتكم أهلَ البيت!

(١) صحيح البخاري ح (٤٠٣٤).

ثم تَرَضَّاها حتىٰ رضِيَتْ[1]!

ثم كان من كلامه يوصي الناس جميعا بآل حبيبه وسيده سيد العالمين ﷺ فيقول: ارقبوا محمداً ﷺ في آل بيته[2].

وقد قلت قبلُ: وهذه خَصلة شريفةٌ عزيزة، لا تكون إلا للكبار الذين خلصت قلوبهم من فتنة الثرثرة وصخب التكاثر.

فلستَ بواجدٍ في فاطمة عليها السلام غيرَ السكينة بمعانيها وثِمَارِها وآثارِها، ولا تنمو السكينة بظلالها وأنوارها إلا في نفسٍ زاهدة، قد فرَغَتْ من الدنيا وصامت عن بهرجها وضجيجها.

وهذا شأن مُطَّرِدٌ لا تخطئه أبدا في حالاتها كلها، رضا وغضبا، فرحا وحزنا، وهذا شأن النفس المُطَهَّرة من أدناس النفوس وخَبَثِها، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

(١) أخرجه ابن سعد في "الطبقات" ٨/٢٧، وإسناده صحيح، لكنه مرسل، وذكره الحافظ في "الفتح" ٦/١٣٩، ونسبه إلىٰ البيهقي وقال: وهو وإن كان مرسلا فإسناده إلىٰ الشعبي صحيح.

(٢) صحيح البخاري (٣٧١٣)

ذلك القلب!

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ﴾! [النور: ٣٥].

«مثل نور المؤمن الذي في قلبه من الإيمان والقرآن مثل مشكاة»[(١)].

وأما أمنا الصديقة رضي الله عنها، فإن الكلام في فضلها، وبركتها، وخصالها المُنيفة، وشمائلها الفريدة؛ يتسع فيتنامى جليلا عظيما[(٢)]:

إذا نحن أثنينا عليك بصالحٍ ❦ فأنت كما نثني وفوق الذي نُثني!

وسأدور مع القلم ومعك في أفانين الاصطفاءِ، وتجليَّات العناية الربانية بحبيبة سيد الأنبياء ﷺ.

(١) تفسير الطبري (٢٩٦/١٧).

(٢) أفردت كتابا قائما برأسه عن أمنا الصديقة منذ أكثر من عشر سنوات ونفد، بعنوان مروج النور. وقد أحببت هنا أن أستفتح أبوابا من النظر جديدة غير التي كانت في المروج، وهكذا كل من اصطفاهم رب العالمين متى طالعتَ سيرة واحد منهم وجُلْتَ ببصيرتك فيها وجدتَ معاني جديدةً وهداياتٍ مباركة.

۞ الحبيبة

فأول خصالها أنها المحبوبة!

وهو حب مُشْمِسٌ لا يستتر بظل، ولا يتوارىٰ خلف مَجَاز! وتلك خِصِّيصَةٌ فريدة لأمنا ﵂.

نعم! تكلم الأيمة طويلا في المفاضلة بين أمنا سيدة النساء خديجة ﵂، وبين أمنا الصديقة ابنة الصديق ﵄، وكلامهم في مظانه معروف مشهور، ولكلٍّ أدلته التي لا أريدُ الاستكثارَ بإيرادها تخفيفًا علىٰ قارئ هذه الأيام، ونأيًا بالكتاب عن مساجلات العلماء، فليس مجالُ الكتاب سردَ المناقب والمفاضلة بين الصالحين، بل غايته رصد معالم الاصطفاء وثماره وتجلياته.

ومع سبق أمنا خديجة وجلالة قدرها، فإنَّ الله تعالىٰ قد جعله مستقرا في نفوس المسلمين وقلوبهم؛ أن نعت (حبيبة رسول الله ﷺ) متىٰ طرقَ النفوسَ سبَقَ إلىٰ أذهانهم اسمٌ واحدٌ قبل غيره، وهو اسم الصديقة عائشة ﵂.

وهذا سِرٌّ إلهي مبارك!

روىٰ حافظ هذه الأمة أبو هريرة ﵁، عن النبي ﷺ، قال: «إذا أحبَّ اللهُ العبدَ نادىٰ جبريلَ: إن الله يُحِبُّ فلانًا فأحْبِبْهُ! فيُحِبُّه جبريل! فينادي جبريل في أهل السماء: إنَّ الله يُحِبُّ فلانًا فأَحِبُّوه! فيُحِبُّه أهل السماء، ثم يوضَعُ له القبولُ في الأرض»[1].

وقد كان هذا نعتَها الأشرف، وصفتَها الأَجْلَىٰ، التي تواترت في القلوب

(١) البخاري ح (٣٢٠٩).

والأَلْسُن، فكانت عَلَمًا على المحبة النبويَّةِ والاصطفاء الإلهي.

فإذا ذُكِرت قيل: "حبيبة رسول الله ﷺ".

وهكذا كان يذكرها التابعون والأئمة كمسروق وغيره، فكان مسروق رحمه الله إذا حدث عنها قال: "حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله".

ولذلك قال الحافظ الذهبي رحمه الله في السِّيَر: وأحبها حبا شديدا كان يتظاهر به[1].

بل كان هو نفسه بأبي هو وأمي إذا حضرت مُفردة الحب في الناس سبق إلى ذكرها رضي الله عنها وأرضاها.

ففي الصحيح وغيره أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص رضي الله عنه على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة» قلت: من الرجال؟ قال: «أبوها» قلت: ثم من؟ قال: «عمر» فعَدَّ رجالا، فسكتُّ مخافة أن يجعلني في آخرهم[2].

فإجابة سيدي ﷺ مبينةٌ عن أن الحب إذا كان متعلقا بالناس فإن انصرافه الأول الذي يطرق الذهن هو إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حتى إن عَمْرًا رضي الله عنه لما استفصل فخص بالسؤال الرجال أجابه ﷺ بالنعت الموصول بالضمير الموصول بها (أبوها)، وتلك شهادة ثانية لها رضي الله عنها، كأنه قال: أَحَبُّ الناس إلي هي، ومن اتصل بها، ثم يأتي الناس من بعد ذلك!

---

(١) (٢/١٤٢).

(٢) البخاري ح ٤٣٥٨

أَحِبُّ من الأسماءِ ما وافقَ اسمها ❦ أو اشْبَهَهُ، أو كان منه مُدَانيا

وهذا كان معروفا مستفيضًا حتىٰ في نسائه ﷺ، فقد جاء في المسند وغيره بسند جوَّدَه بعضُ أهل العلم[1] عن أبي قيسٍ قال: أرسلني عبد الله بن عمرو ﷺ إلىٰ أم سَلَمَةَ أسألها: هل كان رسول الله ﷺ يُقَبِّل وهو صائم؟

فإن قالت لا، فقل لها: إن عائشة تُخبر الناسَ أن رسول الله ﷺ كان يُقبِّل وهو صائم.

قال: فسألتُها: أكان رسول الله ﷺ يُقَبِّل وهو صائم؟ قالت لا.

قلت: إن عائشة تُخبر الناسَ أن رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم كان يقبل وهو صائم؟

قالت: لعله إياها، كان لا يتمالك عنها حُبًّا، أما إياي فلا!

وكان من ثمار اشتهار ذلك الحب أن الصحابة ﷺ كانوا يقصدون النبي ﷺ بالهدايا في يوم أمنا عائشة ﷺ.

وقد كان نساء رسول الله ـ ﷺ ـ حِزْبَيْن، فحزبٌ فيه عائشة وحفصة وصفية وسَوْدَة، والحزبُ الآخر أمُّ سلمةَ وسائِرُ نساء رسول الله ـ ﷺ ـ، وكان المسلمون قد علموا حُبَّ رسول الله ـ ﷺ ـ عائشةَ، فإذا كانت عند أحدهم هديةٌ يريد أن يُهْدِيَها إلىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ أخَّرَها، حتىٰ إذا كان رسول الله ـ ﷺ ـ في بيت عائشة، بعثَ صاحبُ الهدية إلىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ في بيت عائشة.

(١) انظر الفتح الرباني (٥٧/١٠)، وقد عزاه للطحاوي وقال: بسند جيد. وضعفه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند.

وفي رواية عنها: كان الناس يتحرَّون بهداياهم يومي، يبتغون بها ـ أو يبتغون بذلك ـ مرضاة رسول الله ـ ﷺ ـ، فكلم حزب أم سلمة، فقلن لها:

يا أم سلمة! والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فكلمي رسول الله ـ ﷺ ـ يكلم الناس، فيقول: من أراد أن يُهدي إلىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ هديةً فليُهده حيث كان من نسائه.

فكلمته أم سلمة بما قلن، فلم يقل لها شيئا، وفي رواية: فأعرض عنها، فسألنها؟

فقالت: ما قال لي شيئا.

فقلن لها: فكَلِّميه.

قالت: فكلمتُه حين دارَ إليها أيضًا، فلم يقُل لها شيئا، وفي رواية: قالت: فأعرض عني، فسأَلْنَها؟ فقالت: ما قال لي شيئا.

فقلن لها: كلميه حتىٰ يُكَلِّمَكِ، فدار إليها فكلمتْه، قالت: فأعرض عني، فلما كان في الثالثة ذكرتْ له، فقال لها:

"يا أم سلمة! لا تؤذيني في عائشة؛ فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوبِ امرأةٍ إلا عائشة"!

وفي روايةٍ: فإنه والله ما نزل عليَّ الوحيُ وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها".

قالت: فقلت: أتوب إلىٰ الله من أذاك يا رسول الله!

ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله ـ ﷺ، فأرسلت إلىٰ رسول الله ﷺ:

إن نساءك ينشدنك الله العدل في بنت أبي بكر، فكلمَتْه، فقال:

"يا بنية! ألا تحبين ما أُحِبُّ؟". قالت: بلىٰ.

فرجعت إليهن، فأخبرتهن، فقلن ارجعي إليه، فأبت أن ترجع.. الحديث[1].

❊ ففي هذا الحديث دلالات مباركة:

ـ من اشتهار حبها بين الصحابة، وقصدهم بالهدية يومها.

ـ أن الصحابة كانوا يحبون إهداءه ﷺ في أهنأ يوم وأصفاه وأحبه إلىٰ نفسه، وقد علموا بالشواهد والقرائن حب النبي ﷺ زوجه عائشة، وأن نفسه تكون أهنأ ما تكون في يومها، فلذلك قصدوه بالهدية في يومها.

ـ وفيه أيضا شدة حبه ﷺ أمنا الصديقة، حتىٰ إنه بأبي هو وأمي جعل مجرد الكلام معه في شأنها أذىٰ له، وهذا هو الغاية في الحب!

ـ ومن ذلك حبُّ رب العالمين سبحانه وبحمده أَمَتَه الصِّدِّيقة عائشة رضي الله عنها لاختصاصها بالشرف العظيم بتنزل الوحي علىٰ النبي ﷺ وهو معها في لحافها وثوبها، دون سائر أمهاتنا رضي الله عنهن.

وتلك منقبة شريفة جليلة، تدل علىٰ حَظِّها الأعظمِ من المحبة الإلٰهية والنبوية، وعلىٰ تمام طهارتها حِسًّا ومعنىٰ، وروحا وجسدا عليها رضوان الله.

(١) مختصر صحيح البخاري (١١٧٢)

۞ الهدية الإلهية:

ولابد من بيان شرف تلك المنقبة العظيمة ودلالتها على اصطفاء أمنا ﵂ ورِفعة قَدْرِها.

فإن القرآن كلام رب العالمين اصطفى له أشرف رسله ﷺ، وأنزله على أطهر قلبٍ، واصطفى لبلاغه أمينَ الوحي القويَّ الأمينَ، أحد سادات الملأ الأعلى وهو سيدنا جبريل على نبينا وعليه صلوات الله وسلامه.

وجعله في اللوح المحفوظ، ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٦].

ونعته بالكرم فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٩]، وصانه تعالى وحفظه من خَبَثِ الشياطين وعبثهم، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١١].

فاصطفاء أُمِّنا ﵂ بتنزُّل الوحي على النبي ﷺ وهو في ثيابها ولِحَافِها؛ شاهدٌ جليل على ما اختصها الله به من طهارة السريرة، وصفاء القلب، وخُلُوص الباطن من كل ظُلْمَةٍ وكَدَر؛ فإن أول ما يُذكر في شأن القرآن القلب: متى طهر تعلق به، ومتى تدنس حُجِبَ عنه!

قال ذو النورين ﵁: «لو طَهُرت قلوبكم ما شبعت من كلام الله»[1].

هذا في القراءة، فكيف في الاختصاص بالتنزل؟!

(١) الحلية لأبي نعيم (٧/٣٠٠).

ثم إن في هذا بيانا فصيحا مباركا علىٰ حب الله تعالىٰ لها وحب الملائكة والنبي ﷺ للصديقة عائشة.

فإن الملائكة مُطَهَّرون مَخْلُوقون من نور، يحبون النفوس المُطَهَّرة والقلوبَ العُلْوِيَّةَ المُنَوَّرة، التي تسافر في معارج الولاية ومنازل الهداية، ويحبون مَن يُحِبُّه الله تعالىٰ من أوليائه وأصفيائه، وحَسْبُكَ بالصِّدِّيقة صَلَاحًا وطُهرًا وجَلَالَةَ قَدْر.

والنبي ﷺ سيد المحبين وإمام العابدين، وقَلْبُه من الملأ الأعلىٰ وإن كان جسده من التراب ﷺ، وهو أعلم الخلق بالله تعالىٰ وأشدُّهم له خشيةً؛ فهو الأعلم بمُرَادات ربه ومَحَابِّه، وتَعليلُه بأبي هو وأمي حُبَّه للصديقة تعليلُ محبٍّ لربه، يلحظ شواهد الوُدِّ الإلهي بلهفةِ المُحِبِّ وشَوْق السابق المهرول إلىٰ ربه.

فلو تمثلت محبًّا ظامئًا يسري في صحراءَ مُظلمةٍ، حتىٰ إذا لاح له ضوء، واشتعل في الأفق نور، قصَد تلكَ المنازلَ وأهلَها، وجعلهم قِبْلةَ قلبه وموئل روحه.

وإذا كان سيد الخلق ﷺ إذا نزل الغيث خرج فتعرض له، وكشف عن عاتقه ليصيب من المطر، ويعلل ذلك حبا وشوقًا فيقول: «إنه حديث عهدٍ بربه».

فكيف ترىٰ يكون حبه لعائشة، وما نزل عليه الوحي في لحاف امرأة غيرها؟!

والمحب الصادق يُرهِفُ سمع قلبه فيتحسَّسُ محابَّ حبيبه، ويرقُبُ فِعْلَه وقَوْلَه وعملَه، ومَنْ يصِلُ ومن يقطع.

ونبينا سيد المحبين ﷺ، رأىٰ اختصاص الصديقة عائشة بتلك الخصلة، فعلم منزلتَها من ربها، ومحبةَ ربه لها، فازدادَ عليها إقبالًا ولها حبا.

وكأنه لما رأىٰ اختصاص أُمِّنا بتلك الخصيصة الإلٰهية، رضي ففرح باختصاص الصحابة يومها بالهدية، فالصفاء لأهل الاصطفاء، والكرم لأهل الكرامة، ومن اختصه ربه بالعطاء فليختصه الناس بالإهداء!

ولذلك أمر أَخَصَّ الناس به بحب عائشة، فقال لفاطمة: أيْ بُنَيَّة! أتُحِبِّينني؟ فأَحِبِّي هذه.

لأنه لا يحب إلا ما أحبه الله، وهو يحب لابنته التعبد لله بحبه وحب من يحب ﷺ.

وقد عاشت عمرها المبارك كله في خفارة هذا الحب إلىٰ أن لقيت ربها طيبة مباركة.

فلما قضتْ ﵂، فسمعت أمُّ سلمة ﵂ الصَّرْخَةَ، أرسلت جاريتها وقالت لها: انظري ما صنَعَتْ، "يعني تنظر خبر أمنا الصديقة".

فجاءت فقالت: قد قَضَتْ، فقالت: «ي﵂! والذي نفسي بيدهِ لقد كانت أحبَّ الناس كُلِّهم إلىٰ رسول الله ﷺ، إلا أبَاها»[1]

۞ بوابة الرضا النبوي:

وهذا يدلك علىٰ أن هذا الاختصاص الفريد كان أمرا فاشيا مُشْتَهِرًا، لا يخفىٰ علىٰ جاراتها من أمهات المؤمنين ﵃[2]

(١) مسند الطيالسي (١/٢٢٤، ح١٦١٣)، وحلية الأولياء (٢/٤٤)

(٢) آثرت لفظة الجارة لا الضرة، اهتداء بفعل التابعي الجليل محمد بن سيرين ﵀.

فهذه أمنا سَوْدة لما كبرت في سنها فَفَرَقَتْ[1] أن يفارقها النبي ﷺ وهبت يومها لأمنا الصديقة عائشة رضي الله عنها، لا لأحد غيرها، وما ذاك إلا معرفة منها بمنزلتها من نبي الله ﷺ.

وكذلك لما أرادت أمنا صَفِيَّةُ رضي الله عنها استرضاء النبي ﷺ جعلت قِبْلتها في ذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وذلك حديث جليل إليك ألفاظه:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَتْ صَفِيَّةُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ فِي سَفَرٍ، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَهَا، فَأَبْطَأْتُ فِي الْمَسِيرِ، فَاسْتَقْبَلَهَا رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ وَهِيَ تَبْكِي وَتَقُولُ: "حَمَلْتَنِي عَلَىٰ بَعِيرٍ بَطِيءٍ"!

فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ يَمْسَحُ بِيَدَيْهِ عَيْنَيْهَا وَيُسْكِتُهَا، فَأَبَتْ إِلَّا بُكَاءً، فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ وَتَرْكَهَا.

فَقَدِمَتْ" فَأَتَتْ عَائِشَةَ فَقَالَتْ: "يَوْمِي هَذَا لَكِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ إِنْ أَنْتِ أَرْضَيْتِهِ عَنِّي".

فَعَمَدَتْ عَائِشَةُ إِلَىٰ خِمَارِهَا، وَكَانَتْ صَبَغَتْهُ بِوَرْسٍ وَزَعْفَرَان، فَنَضَحَتْهُ بِشَيْءٍ مِنْ مَاءٍ، ثُمَّ جَاءَتْ حَتَّىٰ قَعَدَتْ عِنْدَ رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ.

"فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ: "مَا لَكِ"؟

فَقَالَتْ: "ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيَهُ مَنْ يَشَاءُ"!

(١) خافت.

فَعَرَفَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ الْحَدِيثَ ، فَرَضِيَ عَنْ صَفِيَّةَ .

وَانْطَلَقَ إِلَىٰ زَيْنَبَ" فَقَالَ لَهَا: "إِنَّ صَفِيَّةَ قَدْ أَعْيَا بِهَا بَعِيرُهَا ، فَمَا عَلَيْكِ أَنْ تُعْطِيَهَا بَعِيرَكِ" .

قَالَتْ زَيْنَبُ: "أَتَعْمَدُ إِلَىٰ بَعِيرِي فَتُعْطِيه الْيَهُودِيَّةَ ؟!

فَهَاجَرَهَا رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ، فَلَمْ يَقْرَبْ بَيْتَهَا ، وَعَطَّلَتْ زَيْنَبُ نَفْسَهَا ، وَعَطَّلَتْ بَيْتَهَا ، وَعَمَدَتْ إِلَىٰ السَّرِيرِ فَأَسْنَدَتْهُ إِلَىٰ مُؤَخَّرِ الْبَيْتِ ، وَأَيِسَتْ مِنْ أَنْ يَأْتِيَهَا رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ .

فَبَيْنَا هِيَ ذَاتَ يَوْمٍ ، إِذَا بِوَجْسِ[1] رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ ، قَدْ دَخَلَ الْبَيْتَ فَوَضَعَ السَّرِيرَ مَوْضِعَهُ .

فَقَالَتْ زَيْنَبُ: يَا رَسُولَ اللهِ" جَارِيَتِي فُلَانَةُ قَدْ طَهُرَتْ مِنْ حَيْضَتِهَا الْيَوْمَ ، هِيَ لَكَ .

فَدَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ وَرَضِيَ عَنْهَا"[2] .

فانظر كيف التمست أُمُّنا صفيةُ رضا النبي ﷺ من بوابة الصِّديقة ، وانظر كيف سعت الصديقة في حاجة أختها وجارتها صفية ، مع ما يقع من الضرائر ـ كما يقول الناس ـ من التحاسُدِ والتهاجُر!

ثم انظر كيف تلطَّفت الصِّدِيقة فعَمَدَت إلىٰ الطِّيب وجلست بين يدي

(١) الوجس: الصوت الخفي .

(٢) النسائي في عشرة النساء ح ٢٦٦ والضياء في المختارة ح ١٧٢٧ ، بسند صحيح .

النبي ﷺ جلوسًا رفيقًا، وكيف اهتَدَتْ إلىٰ مَفَاتِح الكلام بهدوء الأنثىٰ وسكينة الحبيبة؛ لتُؤنسه وتطيب خاطره، وتُذهب ما عساه يكون في نفسه ﷺ من كَدَرٍ، فيكون ذلك مَدْخلًا حسنًا إلىٰ مرادها من الشفاعة لأختها صفية، واسترضاء النبي ﷺ عليها.

وليست تهتدي إلىٰ هذه المذاهب في اللطف، إلا حبيبةٌ فقيهةٌ بمحاب النبي ﷺ، حبيبةٌ موقنةٌ بمنزلتها منه ومحبته لها، ولو لم تكن كذلك ما قصدتْها أمنا صفية، وما أجابتها أُمُّنا عائشة فسَعَتْ في حاجتها، غير متردِّدَة، أو شاكَّة، أو طالبةٍ منها الانتظار، بل قامت قيام الموقن المتثبت من حبه لها، رضي الله عنها وأرضاها.

ثمرات الحب والاصطفاء

وقد كان هذا الحب ثمرةَ اصطفاءٍ إلهي، له من البركات والدلائل ما لا أحصيه كثرة، غير أني موجزٌ لك بعض الشواهد التي تدلك علىٰ ما وراءها، خشية الإطالة؛ فإنه باب طويل جدا.

۞ أولا: الزواج منها بوحي.

لا أحبَّ إلىٰ الله تعالىٰ من النبي ﷺ، وقد اصطفاه الله خليلا، ولن يصطفي له سكنًا يأوي إليه وظِلًّا ينعم به إلا من تكون أطيب السكن وأهنأ سكينة.

ولقد أوحي رب العالمين إلىٰ رسول الله ﷺ بالزواج من الصديقة عائشة رضي الله عنها، وجاءه بذلك جبريل عليه السلام.

وقد أخبرها بهذا رسول الله ﷺ، فقال لها:

"أُرِيتُكِ قبل أن أتزوجكِ مرتين: رأيت المَلَك، ـ وفي رواية الترمذي ـ جبريل يحملك في سَرَقَةٍ من حرير[1]، فقال لي: هذه امرأتك. فقلت: له: اكشِفْ، فكشَفَ عن وجهك الثوبَ فإذا هي أنتِ، فقلتُ: إنْ يكنْ هذا من عند الله يُمْضِه.

ثم أُرِيتُكِ يحملكِ في سَرَقةٍ من حرير، فقلت: اكشفْ. فكشفَ، فإذا هي أنتِ، فقلت: إن يكُ هذا من عند الله يمضه[2].

---

(١) السَّرَقَة: القطعة من الحرير.

(٢) البخاري (٣٨٩٥)، ومسلم (٢٤٣٨)، واللفظ الذي أوردته هو ما في مختصر صحيح البخاري=

وقد كان يوقن ـ بأبي هو وأمي ـ أن تلك الرؤيا من عند الله، ولكنه أخرج الكلام مخرج الذي يقول لابنه مثلًا: إن كنتُ أباك، فأنا مَن ينفق عليك لا أنتَ.

فهذا تقرير لأبوته وليس شكًّا فيها، وهو أسلوب بليغ للتوكيد، يسميه أهل البلاغة بتجاهل العارف

يقول الإمام الطِّيبي رحمه الله: هذا الشرط مما يقوله المُتَحَقِّقُ لثبوت الأمر، المُدِلُّ بصِحَّته، تقريرًا لوقوع الجزاء وتَحَقُّقِه.

ونحوه قول السلطان لمن تحت قَهْره: إنْ كنتُ سلطانًا انتقمتُ منك، أي السلطَنَةُ مقتضيةٌ للانتقام[1].

ثانياً: إنها ابنة أبي بكر[2]!

وكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا سَهْلًا، إِذَا هَوِيَتِ الشَّيْءَ تَابَعَهَا عَلَيْه.

اختص النبي ﷺ أمنا الصديقة بأفعال وأقوال لم يشْرَكْها فيها غيرُها من أمهاتنا رضوان الله عليهن، والشواهد في هذا مستفيضة مباركة.

فوحدها التي ثبت أن النبي ﷺ سابقها من بين نسائه كلهن.

فقد كان النبي ﷺ في سَفَرٍ، فقال لأصحابه: تقدَّموا، ثم قال للصِّدِّيقة

= ٢٦٢٥. ورواية جبريل في الترمذي

(١) شرح المشكاة (٣٩٢٢/١٢).

(٢) قالها النبي ﷺ ثناء عليها وفرحا بها، وسيأتي الحديث.

عائشةَ ﵂: تعالَيْ أُسَابِقُك!

قالت أمنا: فسبقتُه!

فَلَبِثْنَا، حتىٰ إذا أَرْهَقَنِي اللحم ـ وفي روايةٍ: حملتُ اللحم ـ سابَقَنِي، فسَبَقَنِي، فقال: هذه بتلك[1].

ولا يُعلم أنه فعل هذا إلا معها، ولكي لا يكون هذا فلتةً عابرةً، أكده ﷺ بتكرارٍ فيه حبٌّ وجمال! فهو يوسع لها في دروب الحياة مَرَاحًا تجد فيه سكينتَها الفرحة، ثم هو يقول لها بلسان الحال: لم أَنْسَ من شأنك شيئًا، ولم تشغلني الأمور الكِبار عنك، وإني علىٰ ذُكر من سبقك إياي من قبل، فهذه بتلك!

ورحم الله ابنَ الرومي، فقد كان يقول في داليته الذائعة:

حُسنها في القلوب حُسنٌ جديدٌ ❦ فلها في القلوب حبٌّ جديدُ!

ولا ينتهي حُسْنُ هذا الموقف الفريد في نفسي، فهو بأبي هو وأمي ﷺ يلتفت إلىٰ مَحَابِّها ويجعلها منه علىٰ ذُكْرٍ، لا يلحقها نسيان، ولا تضيق عنها أزمنته العامرة بما لا يخفىٰ علىٰ مسلم، فاختصاصها بهذا وتكراره فيه مساحات هائلة للتدبر والتأمل اللذين يفضيان بالإنسان ولا بد إلىٰ شدة حبه وإجلاله ﷺ.

(١) صحيح ابن حبان ح (٤٦٩١).

۞ المبَارَكة:

ويلتحق بهذا وهو أَبْيَنُ وأجْمَلُ، ما كان من بركات ضياع عقدها في غزاةٍ للنبي ﷺ، فكان ضياع العقد بيانًا إلهيا لمنزلتها السامية الرفيعة.

فسبحان الذي بَرَأ رسول الله ﷺ واصطفىٰ له أسمىٰ الأخلاق وأعلاها، وسبحان من اختص الصِّدِّيقةَ عائشةَ رضي الله عنها بتلك المنزلة العالية الرفيعة عند الله تعالىٰ وعند رسوله ﷺ.

تروي أمنا ذلك الخبر فتقول:

خرجْنَا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في بعض أسفاره، حتىٰ إذا كنا بالبَيْدَاء، أو بذاتِ الجيشِ ونحن داخلون المدينة؛ انقطع عِقْدٌ لي، فأناخ النبي ـ ﷺ ـ ونزل، فأقام رسول الله ـ ﷺ ـ علىٰ التماسه، وأقام الناسُ معه، وليسوا علىٰ ماءٍ، وليس معهم ماء.

فثَنَىٰ رأسَهُ في حجْري راقدًا، فأتىٰ الناسُ إلىٰ أبي بكر الصديق فقالوا: ألا ترىٰ إلىٰ ما صنعَتْ عائشةُ؟! أقامتْ برسول الله ـ ﷺ ـ والناسِ، وليسوا علىٰ ماء، وليس معهم ماء؟!

فجاء أبو بكر، ورسول الله ـ ﷺ ـ واضعٌ رأسَه علىٰ فَخِذي قد نام، فقال: حبستِ رسولَ الله ـ ﷺ ـ والناسَ، وليسوا علىٰ ماء، وليس معهم ماء؟!

فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطْعُنُنِي بيده في خاصِرَتي، وفي رواية: فلَكَزَني لَكْزةً شَدِيدةً[1]، وقال: حبستِ الناسَ في

(١) أي ضربة شديدة بيده غضبا منه ﷺ وإجلالا لسيدنا رسول الله ﷺ.

قلادة؟! فبي الموتُ[1] لمكان رسول الله ـ ﷺ ـ، وقد أَوْجَعَني، فلا يمنعني من التحرُّك إلا مكانُ رسول الله ـ ﷺ ـ علىٰ فخذي.

فقام رسول الله ـ ﷺ ـ حين (وفي رواية: فنام رسول الله ـ ﷺ ـ حتىٰ أصبح علىٰ غير ماء، فأنزل الله آيةَ التيمم، فتيمموا.

فقال أُسَيْدُ بنُ الحُضَيْر: ما هي بأولِ بَرَكتِكُم يا آلَ أبي بكر!

قالت: فبعثْنَا البعيرَ الذي كُنتُ عليه، فأصَبْنَا العِقدَ تحته.

ومن طريق أخرىٰ عن عائشة: أنها استعارت من أسماء قلادةً، فهَلَكَتْ[2]، فبعث رسول الله ـ ﷺ ـ في طلبها رجلًا، فوجدها، فأدركتْهمُ الصلاةُ وليس معهم ماء، فصلَّوا بغير وُضوء، فشَكَوْا ذلك إلىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ، فأنزل الله آية التيمم.

فقال أُسَيْدُ بنُ حضير لعائشة: جزاك الله خيرا، فوالله ما نزل بكِ أمرٌ تكرهينه قطُّ إلا جعل الله ذلك لك منه مخرجا، وجعل للمسلمين فيه خيرا، وفي رواية: بركة[3].

ولما رأىٰ الصديق رضي الله عنه تيسير رب العالمين علىٰ المسلمين بسبب ابنته طيب خاطرها وقال لها: والله، ما علمتُ يا بُنَيَّة، إنكِ لمباركة، ماذا جعل الله للمسلمين في حبسكِ إياهم من البركة واليسر؟![4].

(١) تعني شدة ألمها.

(٢) أي ضاعت، وهو استخدام عال نادر.

(٣) انظر جماع روايات الحديث في مختصر البخاري للألباني ح ١٨١ (١/١٢٣).

(٤) المسند ح ٢٦٣٤١.

وأيُّ شيءٍ في ذَهَاب عقدٍ من ظِفار[1] لا يُؤْبَهُ له، وفي غيره عوض، ولكنَّ الشيء الصغير يكبر قَدْرُه لارتباطه بالكبير في القلب!

فلو كان شيئا ثمينًا، لما كان عَجَبًا أن يحبِسَ النبيُّ ﷺ الجيشَ ليبحثوا عنه[2]، ولكنهم عجبوا أن يُحبسوا عن السير وحالهُم مانعةٌ من الوقوف، فليس معهم ماء، وليسوا على ماء، والصلاةُ حضرتهم، والذي يُحْبَسُون من أجله ليس بشيء ذي بال!

وهذا أدلُّ ـ لو فطن العبد ـ على شرف أمنا الصديقة؛ فلها اختصاصٌ ليس لغيرها عند النبي ﷺ، فما وعدها بعِوَضٍ، ولا تركها مُعْرِضًا كحال المتكَلِّف ما ليس منه!

بل أوى إليها، ونام بين يديها على فخِذَيْها، وهذا انحيازٌ إليها، واهتمام بشأنها كُلِّه صغيرِه وكبيرِه.

ونومته بين يديها ترجمان حب يقول: سكينتي بك، ولا يكون منكِ إليَّ ما يزعجني، ولو كان في أمر يسيرٍ لا يأبَه الناس به!

ولقد كانت سكينة والله!

فهذا أبوها يشتدُّ عليها بالقول والفعل حُبًّا للنبي ﷺ وإجلالًا له، وشفقةً على المسلمين، وهي ساكتةٌ تبتلع الألم لِئَلَّا تُزعجَ النبي ﷺ فتوقظَه وهو نائم!

ولو تكلمتْ أو تألَّمَت، لكانت معذورةً، ولكنَّ أمَّنا سكينةٌ فريدةٌ في عالم

(١) مدينة باليمن معروفة.

(٢) وإن كنت لا أُسلِّم بهذا، فليس مقياس الأشياء عند النبي ﷺ مقياسها عند الناس.

النساء، وحبها للنبي ﷺ ورعايتها له أعلىٰ من البيان، فهو أحبُّ إليها من نفسها، وراحَتُها في راحته، وقُرَّةُ عينها في سكينته!

ولقد كان ضياع قلادتها ووقوف المسلمين بحثًا عنها بركةً علىٰ الأمة إلىٰ قيام الساعة؛ فقد خفف الله سبحانه وبحمده عنهم بنزول آية التيمم، وكانت هذه إشارة إلٰهيةً مضيئةً: أنَّ لعائشةَ ما ليس لغيرها، وأنها مباركةٌ في جميع أمرها!

وهذا أُسَيْدُ بن حضير رضي الله عنه يُفصح عن هذا فيقول: جزاك الله خيرا، فوالله ما نزل بكِ أمرٌ تكرهينه قطُّ إلا جعل الله ذلك لك منه مخرجا، وجعل للمسلمين فيه خيرا، وفي رواية: بركة!

ويُصَدِّق الصِّدِّيق كلامَه فيقول لها: والله، ما علمتُ يا بُنَيَّة، إنكِ لمباركة، ماذا جعل الله للمسلمين في حبسكِ إياهم من البركة واليسر!

ومن بدا اختصاصه في الأمر الصغير، فانظرْ كيف يكون قدْرُه فيما هو أعلىٰ وأجَلُّ!

۞ المؤنسة:

ومن ذلك الاختصاص الفريد أن النبي ﷺ كان يتتبع مواضع طعامها وشرابها حبا لها.

فقد روت رضي الله عنها فقالت[1]: كُنْتُ أَشْرَبُ وَأَنَا حَائِضٌ، فَأُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ فَيَضَعُ فَاهُ عَلَىٰ مَوْضِعِ فِيَّ فَيَشْرَبُهُ، وَأَتَعَرَّقُ الْعَرْقَ وَأَنَا حَائِضٌ، فَأُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ «فَيَضَعُ

(١) المسند ح (٢٥٥٩٤).

فَاهُ عَلَىٰ مَوْضِعِ فِيَّ».

وهكذا كان حاله معها خاصةً ﵂؛ إذا أحبت شيئًا مال إليه، حُبًّا لها.

عَنْ عَائِشَةَ ﵂، قَالَتْ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَشْهُرِ الحَجِّ، وَلَيَالِي الحَجِّ، وَحُرُمِ الحَجِّ، فَنَزَلْنَا بِسَرِفَ، قَالَتْ: فَخَرَجَ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَعَهُ هَدْيٌ، فَأَحَبَّ أَنْ يَجْعَلَهَا عُمْرَةً فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ الهَدْيُ فَلَا».

قَالَتْ: فَالْآخِذُ بِهَا، وَالتَّارِكُ لَهَا مِنْ أَصْحَابِهِ.

قَالَتْ: فَأَمَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَكَانُوا أَهْلَ قُوَّةٍ وَكَانَ مَعَهُمُ الهَدْيُ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَىٰ العُمْرَةِ.

قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، فَقَالَ: «مَا يُبْكِيكِ يَا هَنْتَاهُ؟[1]».

قُلْتُ: سَمِعْتُ قَوْلَكَ لِأَصْحَابِكَ فَمُنِعْتُ العُمْرَةَ.

قَالَ: «وَمَا شَأْنُكِ؟» قُلْتُ: لَا أُصَلِّي.

قَالَ: «فَلَا يَضِيرُكِ، إِنَّمَا أَنْتِ امْرَأَةٌ مِنْ بَنَاتِ آدَمَ، كَتَبَ اللهُ عَلَيْكِ مَا كَتَبَ عَلَيْهِنَّ، فَكُونِي فِي حَجَّتِكِ، فَعَسَىٰ اللهُ أَنْ يَرْزُقَكِيهَا».

قَالَتْ: فَخَرَجْنَا فِي حَجَّتِهِ حَتَّىٰ قَدِمْنَا مِنًى، فَطَهُرْتُ، ثُمَّ خَرَجْتُ مِنْ مِنًى، فَأَفَضْتُ بِالْبَيْتِ.

قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجَتْ مَعَهُ فِي النَّفْرِ الآخِرِ، حَتَّىٰ نَزَلَ المُحَصَّبَ، وَنَزَلْنَا مَعَهُ،

(١) يعني يا هذه.

فَدَعَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: «اخْرُجْ بِأُخْتِكَ مِنَ الحَرَمِ، فَلْتُهِلَّ بِعُمْرَةٍ، ثُمَّ افْرُغَا، ثُمَّ ائْتِيَا هَا هُنَا، فَإِنِّي أَنْظُرُكُمَا[1] حَتَّىٰ تَأْتِيَانِي» قَالَتْ: فَخَرَجْنَا، حَتَّىٰ إِذَا فَرَغْتُ، وَفَرَغْتُ مِنَ الطَّوَافِ، ثُمَّ جِئْتُهُ بِسَحَرَ، فَقَالَ: «هَلْ فَرَغْتُمْ؟» فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَآذَنَ بِالرَّحِيلِ فِي أَصْحَابِهِ، فَارْتَحَلَ النَّاسُ، فَمَرَّ مُتَوَجِّهًا إِلَىٰ المَدِينَةِ"[2].

وقد ذكر جابر ﷺ ذلك الخبر فقال[3]: أقبلنا مع رسول الله مُهِلِّين بحجٍّ مُفْرَدٍ، وأقبلت عائشة مُهِلَّةً بعمرةٍ، حتىٰ إذا كانت بِسَرِفَ[4] عَرِكت[5]، ثم قال:

ثم دخل رسول الله علىٰ عائشة فوجدها تبكي، فقال: ما شأنكِ؟ قالت: شأني أني حضتُ وقد حَلَّ الناس ولم أَحْلُل، ولم أَطُف بالبيت، والناس يذهبون إلىٰ الحج الآن.

فقال: إن هذا أمرٌ كتبه الله علىٰ بنات آدم، فاغتسلي ثم أَهِلِّي بالحج. ففعلتْ ووقفتِ المواقفَ، حتىٰ إذا طَهُرت طافت بالكعبة وبالصفا والمروة.

ثم قال: قد حللتِ من حَجِّك وعُمرتك جميعًا!

فقالت: يا رسول الله! إني أجد في نفسي أني لم أَطُف بالبيت حتىٰ حججتُ!

قال: فاذهب بها يا عبد الرحمن[6]، فأَعْمِرْها من التنعيم وذلك ليلة

(١) يعني أنتظركما.
(٢) البخاري ح ١٥٦٠.
(٣) مسلم ح ١٢١٣، وسنن أبي داود ح ١٧٨٥
(٤) موضع قبل مكة.
(٥) أصابها الحيض.
(٦) يعني عبد الرحمن بن أبي بكر، أخاها.

الحصبة. **وكان رسول الله رجلًا سهلًا، إذا هَوِيَتِ الشيءَ تابَعَها عليه**[1].

وهذا يعني أن هذه خَصْلةٌ كانت معروفة عنه ﷺ، وقد اختُصَّت بها الصِّدِّيقة رضي الله عنها.

۞ إطلالة الحب:

وقد اشتهت يومًا تنظر للحبشة ولعبهم في المسجد، فأجابها النبي ﷺ إجابةً فيها تحقق طلبها، وبيان مكانتها منه معا.

فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «رأيتُ النبيَّ ﷺ يستُرُني بثوبه، وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون، وأنا جاريةٌ، فاقدُرُوا قَدْر الجاريةِ الغَرَّةِ الحديثة السن».

وقالت: كان يوم عيد يلعب السُّودان بالدَّرَق والحِراب، فإما سألتُ رسول الله ﷺ، وإما قال: «تشتهين تُبصرين؟» قلت: نعم. فأقامني وراءه، خدي على خده، وهو يقول: «دونكم بني أَرْفِدَة[2]». حتى إذا مَلِلْتُ قال: «حسبُكِ؟» قلت: نعم. قال: «فاذهبي»[3].

وفي رواية أخرى بيانٌ لمظهرٍ من مظاهر الحبِّ والجمال والرِّعَاية النبوية والحنان العظيم:

---

(١) صحيح مسلم ح ١٢١٣.

(٢) جنس من الحبشة. وقيل لقب لهم، وقيل اسم أبيهم الأقدم.

(٣) الحديث في الصحيحين وهذه رواية أبي يعلى بسند صحيح ح ٤٨٢٩.

قالت أمنا[1]: "أن الحبشة كانوا يلعبون عند رسول الله ﷺ في يوم عيد، قالت: فاطَّلَعْتُ من فوق عاتقه، فطَأْطَأَ لي رسول الله ﷺ مَنْكِبيه، فجعلتُ أنظر إليهم من فوق عاتقه حتىٰ شَبِعْتُ، ثم انصرفتُ".

وفي رواية[2]: «وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُومُ عَلَىٰ بَابِ حُجْرَتِي، وَالْحَبَشَةُ يَلْعَبُونَ بِالْحِرَابِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ لِأَنْظُرَ إِلَىٰ لَعِبِهِمْ مِنْ بَيْنِ أُذُنِهِ وَعَاتِقِهِ، ثُمَّ يَقُومُ مِنْ أَجْلِي، حَتَّىٰ أَكُونَ أَنَا الَّتِي أَنْصَرِفُ»، فَاقْدُرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ، الْحَرِيصَةِ عَلَىٰ اللَّهْوِ.

وفي رواية[3]:

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حُجْرَتِي يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ كَيْفَ يَلْعَبُونَ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَنَا أَسْأَمُ، فَاقْدُرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ الْحَرِيصَةِ عَلَىٰ اللَّهْوِ.

وفي روايةٍ في غاية اللطف والعذوبة:

"فقال رسول الله ﷺ: «حَسْبُكِ»، فقلت: يا رسول الله، لا تَعْجَلْ، فقام لي، ثم قال: «حَسْبُكِ»، فقلتُ: لا تعْجَل يا رسول الله. قالت: وما بي حُبُّ النَّظَرِ إليهم، ولكني أحببتُ أن يبلغَ النساءَ مَقَامُه لي، ومكاني منه"[4].

---

(١) المسند ح ٢٤٢٩٦.

(٢) المسند ح ٢٥٣٣٣.

(٣) المسند ح ٢٤٥٥٢.

(٤) سنن النسائي ١٨١/٨ ح ٨٩٠٢، وأصل الحديث في الصحيحين.

فتأمل هذه الألفاظ مَلِيًّا:

"خَدِّي على خَدِّه، ما بين أُذُنِه وعاتِقه، ثم يقوم من أجلي، فطأطأ لي رسول الله ﷺ مَنْكِبَيْه، فقام لي.. يسترني بردائه إلخ.. فكلها ناطق بمكانتها منه ﷺ، وحبه لها، وتقديره لمحابِّها، ورعايته لِسِنِّها، مع الاختصاص البالغ بطول الوقوف، وتكرر الطلب، وهيئة الوقوف، وما فيها من حنانه وحُبِّه لزوجه المباركة عليها السلام.

وقد قلت قبلُ: ففي هيئة الوقوف ما فيها من حنان النبي ﷺ، وحبه لها، وقد كان ممكنا أن يبيحها النظر والمشاهدة وحدها وينصرف هو إلى شأنه ﷺ، فيهيئ لها مكانًا مستورًا تطل منه على لعب الحبشة بالحِراب.

وأيضًا.. كان ممكنًا أن يقف إلى جوارها، غير جاعلٍ من كَتِفِه الكريمِ موئلًا لرأسها.

وأيضًا.. كان يمكنه الوقوفُ يسيرًا معها، ثم الانصراف إلى شئونه وهي كبيرة عظيمة، وقد حُمِّل ما حُمِّلَ من أعباء الدعوة وأمر الأمة ﷺ!

ولكنها الصديقة رضي الله عنها، فكل ذلك الإمكان منفِيٌّ في حقها، ومكانتها في قلبه تأبى عليه أن يفعل هذا معها.

ففي إفساحه الوقت لها، شاهد حبٍّ لا ريبَ فيه، وفي إطالة الوقوف، شاهدٌ آخر، وفي هيئة الوقوف، شاهِدٌ ثالث، وفي احتماله إطالةَ الوقوف شاهدٌ رابع، وفي رِعَايَتِه لحَداثَة سِنِّها، وصَبْرِه الوَدُود، ولُطْفِه الحاني شاهدٌ وشاهدٌ، فهو موقف زاخر بشواهد الفضل التي لا تنتهي على عظيم مكانة أمنا الصديقة عند خير الخلق ﷺ[1].

(١) انظر مروج النور للمؤلف ص ١٢ وما وليها.

۞ مسامرات الأُنس:

ومن صور الإيناسِ أنه كان يجلس الوقتَ الطويلَ يستمع إليها تُسَامِرُه وتَقُصُّ عليه أنباء مَن سبق، فيسكت لا يُقاطعها، ويُصغي إليها مُهتمًا بها، ويُعَلِّق علىٰ ما تقول بما يدُلُّ علىٰ حبه لها!

ودونك حديثَ أم زَرْعٍ الطويل:

عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ:

جَلَسَ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ امْرَأَةً، فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ أَنْ لَا يَكْتُمْنَ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا.

قَالَتِ الأُولَىٰ: زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ، عَلَىٰ رَأْسِ جَبَلٍ: لَا سَهْلٍ فَيُرْتَقَىٰ وَلَا سَمِينٍ فَيُنْتَقَلُ.

قَالَتِ الثَّانِيَةُ: زَوْجِي لَا أَبُثُّ خَبَرَهُ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَذَرَهُ، إِنْ أَذْكُرْهُ أَذْكُرْ عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ!

قَالَتِ الثَّالِثَةُ: زَوْجِيَ العَشَنَّقُ، إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ، وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ!

قَالَتِ الرَّابِعَةُ: زَوْجِي كَلَيْلِ تِهَامَةَ، لَا حَرٌّ وَلَا قُرٌّ، وَلَا مَخَافَةَ وَلَا سَآمَةَ.

قَالَتِ الخَامِسَةُ: زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فَهِدَ، وَإِنْ خَرَجَ أَسِدَ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ.

قَالَتِ السَّادِسَةُ: زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَفَّ، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَّ، وَإِنِ اضْطَجَعَ التَفَّ، وَلَا يُولِجُ الكَفَّ لِيَعْلَمَ البَثَّ.

قَالَتِ السَّابِعَةُ: زَوْجِي غَيَايَاءُ ـ أَوْ عَيَايَاءُ ـ طَبَاقَاءُ، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ، شَجَّكِ أَوْ فَلَّكِ أَوْ جَمَعَ كُلًّا لَكِ.

قَالَتِ الثَّامِنَةُ: زَوْجِي: المَسُّ مَسُّ أَرْنَبٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ زَرْنَبٍ.

قَالَتِ التَّاسِعَةُ: زَوْجِي رَفِيعُ العِمَادِ، طَوِيلُ النِّجَادِ، عَظِيمُ الرَّمَادِ، قَرِيبُ البَيْتِ مِنَ النَّادِ.

قَالَتِ العَاشِرَةُ: زَوْجِي مَالِكٌ، وَمَا مَالِكٌ! مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكِ! لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتُ المَبَارِكِ، قَلِيلَاتُ المَسَارِحِ، وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ المِزْهَرِ، أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ.

قَالَتِ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ، وَمَا أَبُو زَرْعٍ؟! أَنَاسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ، وَمَلَأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ، وَبَجَّحَنِي فَبَجِحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي، وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةٍ بِشِقٍّ، فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ، وَدَائِسٍ وَمُنَقٍّ، فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أُقَبَّحُ، وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ، وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ، أُمُّ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ، عُكُومُهَا رَدَاحٌ، وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ، ابْنُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ، مَضْجَعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ، وَيُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الجَفْرَةِ، بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ، طَوْعُ أَبِيهَا، وَطَوْعُ أُمِّهَا، وَمِلْءُ كِسَائِهَا، وَغَيْظُ جَارَتِهَا، جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ، لَا تَبُثُّ حَدِيثَنَا تَبْثِيثًا، وَلَا تُنَقِّثُ مِيرَتَنَا تَنْقِيثًا، وَلَا تَمْلَأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشًا.

قَالَتْ: خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَالأَوْطَابُ تُمْخَضُ، فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَالفَهْدَيْنِ، يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ، فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا، فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا، رَكِبَ شَرِيًّا، وَأَخَذَ خَطِّيًّا، وَأَرَاحَ عَلَيَّ نَعَمًا ثَرِيًّا، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ

رَائِحَةٍ زَوْجًا، وَقَالَ: كُلِي أُمَّ زَرْعٍ وَمِيرِي أَهْلَكِ، قَالَتْ: فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ، مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آنِيَةِ أَبِي زَرْعٍ، قَالَتْ عَائِشَةُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْع. إلا أنه طلقها، وإني لا أطلقكِ!»[1].

ولا يستمع إلىٰ هذا كُلِّه غيرُ مستأنسٍ بحديث زوجه، وما علمتُ هذا كان منه مع غيرها رضي الله عنها.

(١) صحيح البخاري ح (٥١٨٩). وقد كرهت الإثقال بإيراد معاني الكلمات في الحاشية، فيلتمس شرح الحديث ومعانيه في كتب العلماء، وقد عني به جماعة كالقاضي عياض وغيره، وشرحه من المتقدمين والمعاصرين جماعة وفيرة من أهل العلم.

حدائق الاطمئنان

ويلتحق بهذا الإيناس ما يمكن تسميته بـ"بحدائق الاطمئنان" التي كان يبسطها النبي ﷺ لأهل بيته مروجًا خضراء اتساعًا واحتواءً، وقد اختَصَّ الصديقةَ من هذا بحظٍّ وافرٍ لم يَشركها فيه أحد.

وأبدؤك بشاهد فيه اللطف والحنان والرحمة والحب معا، إذ يقول ﷺ للصديقة عائشة رضي الله عنها: إِنِّي لَأَعْلَمُ إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَىٰ» قَالَتْ: فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «أَمَّا إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً، فَإِنَّكِ تَقُولِينَ: لَا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَىٰ، قُلْتِ: لَا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ» قَالَتْ: قُلْتُ: أَجَلْ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَهْجُرُ إِلَّا اسْمَكَ[1].

وهذه كلماتٌ مورقةٌ باللطف والمحبة، ناضرةٌ بالحنان والرحمة، فهو يُخبرها بمكانتها في قلبه الشريف، ويبسُطُ لها ظِلال الدلال التي تسَعُ المرأةَ بجمالها النديِّ، وفيئِها الهانئ، ثم كأنه يقول لها: إني أَفْقَهُ الحرفَ منك، وأُبْصِر صورةَ قلبِكِ فيه، وأسمَعُ صوتَ خفقاتِك، غاضبةً أو راضيةً، وليس وراء ذلك بيان عن الحب.

ويعجبني هنا كلام مُبهجٌ للإمام الطِّيبِيِّ عن هذا الحديث، فقال رحمه الله:

هذا الحَصْر[2] من اللُّطْف في الجواب؛ لأنها أخبرتْ أنَّها إذا كانت في غايةٍ

(١) صحيح البخاري٧/٣٦ ح ٥٢٢٨، ومسلم ٤/١٨٩٠ ح ٢٤٣٩

(٢) يعني قول أمنا رضي الله عنها: لا أهجر إلا اسمك.

من الغضب الذي يسلُبُ العاقلَ اختيارَه؛ لا يُغَيِّرُها عن كمالِ المحبةِ المُسْتَغْرِقَةِ ظاهرَها وباطنَها، الممتزجةِ برُوحها.

وإنما عبَّرتْ عن التَّرْكِ بالهِجْران؛ لتَدُلَّ به على أنها تتألَّم من هذا الترك الذي لا اختيارَ لها فيه، وأُنشِد:

إنـــي لأمنحـــكِ الصـــدودَ، وإننـــي ❦ قَسَـمًا، إليـك مـع الصـدود لَأَمْيَـلُ[1]

وكان يتسع لها ويتنَزَّلُ فيرفق بحداثة سنها، ويتجاوب مع صناعتِهَا عوالمَ فريدة من المرح واللُّعَبِ تناسب عمرها ﵂، وتلك حديقةٌ أُخرىٰ!

فقد روت ﵂ ـ فقالت: "قدم رسول الله ـ ﷺ ـ من غزوة تبوك، وفي سهوتها[2] ستر، فهبت ريح فكشفت ناحية الستر عن بنات[3] لُعَبٍ لي، فقال: «ما هذا يا عائشة؟»".

قلت: بناتي!

ورأىٰ بينهن فرسًا له جناحان من رِقَاعٍ، فقال: «ما هذا الذي أرىٰ وسطهن»؟!

قلت: فَرَسٌ.

قال: «وما هذا الذي عليه»؟!

---

(١) شرح المشكاة (٧/٢٣٢٨).

(٢) السهوة: شبيه بالرف والطاق الذي يُوضع عليه الأشياء.

(٣) لُعَب لها ﵂.

قلت: جناحان.

قال: «فرس له جناحان»؟!

قلت: أما سمعتَ أنَّ لسليمانَ خيلًا لها أجنحة؟

قالت: «فضحك حتىٰ رأيت نواجذه»[1].

فانظر إلىٰ تتابع أسئلته ﷺ، ولطفه البالغ في استخدامه تجاهُلَ العليم: ما هذا؟ وما هذا الذي عليه؟ وفرس له جناحان؟ وكل هذا يعلمه ﷺ، ولكنه يفسح لها مساحات الكلام، ويرتقب أجوبتها، متوسعًا في الحديث، مُطِيلًا له، مختتما لذلك كُلِّه بالضحك، وكل هذا لا يكون إلا مع من اصطفته النفس وأحبت الحديث معه، فأطالته استمتاعا بحديثه وفرحًا بالكلام معه.

وهذا مَذْهَبُ المحبين في مُحَادَثَةِ أحبَابِهم، يَبْتَدِءُونهم بالسؤال، ويَسْتَنْبِتون الجوابَ، وهم يَعْلَمُونه، أُنْسًا بالحبيب، وحُبًّا للحديث معه.

وشهيرةٌ هي أبيات ابن الرومي، «وحديثها السحر الحلال» حيث يقول فيها:

إنْ طَالَ لم يُملَلْ، وإن هي أوْجَزَتْ ❦ ودَّ المحدَّثُ أنها لم تُوجِزِ!

فليس هذا من باب الملاطفة والحنان وحسب، ولكنه ولا شك بباب الحب أولىٰ وأوثق.

وقد طارت في كتب الأدب كلَّ مطار تلك الأبيات التي خلد فيها الشاعر مناجاة المحبين وسمرهم مع أحبابهم:

(١) سنن أبي داود ح ٤٩٣٢.

ولَمَّـا قَضَـيْنَا مِـنْ مِنًـىٰ كُـلَّ حَاجـةٍ ❦ ومَسَّـح بالأركـان مَـنْ هـو ماسـحُ
وشُـدَّت علـىٰ دُهْـم المهَـارَىٰ رِحَالُنـا ❦ ولـم يَنْظُـر الغـادي الَّـذِي هـو رائـحُ
أخـذْنا بـأطراف الأحاديـث بَيْنَنـا ❦ وسَـالَتْ بأعنـاق المطـيِّ الأبـاطحُ

وقد أطال الكلامَ عنها شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني ﷺ في الأسرار، وتفنن في ذكر أسرارها ومَرَابِضِ الجمال فيها.

وحبه ﷺ الحديث مع أمنا الصديقة ﷺ معروف مشهور، ولهذا خبر طريفٌ ترويه أمنا ﷺ:

عن عائشة أن النبي ـ ﷺ ـ كان إذا خرج أقرْعَ بين نِسَائِه، فطارتِ القُرْعَةُ لعائشةَ وحَفْصَة، وكان النبي ـ ﷺ ـ إذا كان بالليل سارَ مع عائشةَ يتحدثُ.

فقالت حفصة: ألا تركبين الليلةَ بعيري، وأركَبَ بعيرك تنظرين وأنظر؟ فقالت: بلىٰ.

فركبتْ، فجاء النبي ـ ﷺ ـ إلىٰ جَمَلِ عائشةَ، وعليه حفصة، فسلَّم عليها، ثم سار حتىٰ نزلوا، وافتقدتْه عائشةُ!

فلما نزلوا جعلت رِجْلَيْهَا بين الإِذْخِرِ، وتقول: يا ربّ! سَلِّطْ عليَّ عقربًا أو حيةً تلدَغُنىٰ! ولا أستطيعُ أن أقول له شيئا[1].

وفي رواية أكثر تفصيلا تقول:

(١) البخاري ح ٥٢١١

كان رسول الله ﷺ إذا خرج أَقْرَعَ بين نسائه فطارت القرعة على عائشة وحفصة فخرجتا معه جميعا، وكان رسول الله ﷺ، إذا كان بالليل، سار مع عائشة يتحدث معها، فقالت حفصةُ لعائشة: ألا تَرْكَبِينَ الليلةَ بعيري وأركب بعيرك، فتنظرين وأنظر؟

قالت: بلى.

فركِبَتْ عائشة على بعير حفصةَ، وركِبَتْ حفصةُ على بعير عائشةَ، فجاء رسول الله ﷺ إلى جَمَلِ عائشةَ وعليه حفصةُ، فسلَّم ثم سار معها، حتى نزلوا، فافتقدَتْه عائشةُ فغارتْ، فلما نزلوا جعلت تجعل رجلها بين الإذخِر وتقول: يا رب سَلِّط عليَّ عقربًا أو حيةً تلدغني!

رسولك ولا أستطيع أن أقول له شيئًا![1]

* **ومن دلائل الدَّلَالِ**، وشواهد ما نحن فيه من إفساح مساحاتِ القول لها رضي الله عنها:

أن عُبَيْدَ الله بنَ عبد الله بنِ عُتْبَة دخل عليها يومًا ـ رضي الله عنها ـ فقال: ألا تُحَدِّثِيني عن مرض رسول الله ـ ﷺ ـ؟

قالت: بلى.. أول ما اشتَكَى رسولُ الله ـ ﷺ ـ في بيت ميمونَةَ ـ رضي الله عنها ـ، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا مرَّ ببابي مِمَّا يُلقي الكلمةَ ينفع الله ـ ﷻ ـ بها، فمرَّ ذاتَ يومٍ فلم يقُلْ شيئًا، ثم مَرَّ أيضا فلم يقُلْ شيئًا ـ مرَّتَيْن أو ثلاثا ـ.

فقلت: يا جاريةُ، ضَعِي لي وِسَادةً على الباب.

(١) مسلم ح ٢٤٤٥.

وعَصَبْتُ رأسي، فرجَعَ ذاتَ يومٍ من جنازة بالبَقيع، فمَرَّ بي، فوجدني أقول: وارأْسَاهُ!

فقال: «يا عائشة، ما شأْنُكِ؟» فقلت: أجِدُ صُدَاعًا في رأسي.

فقال: «بل أنا يا عائشةُ وارأساهُ!

ثم قال: ما ضَرَّكِ لو مِتِّ قبلي، فقمتُ عليك فغَسَّلْتُكِ وكفَّنْتُكِ، وصلَّيتُ عليكِ، وأستَغْفِرُ لك، وأدعو لكِ، ودَفَنْتُكِ»؟

فقلت له ـ غَيْرَىٰ[1]: واثُكْلَيَاهُ! والله إني لأظُنُّكَ تُحِبُّ موتي!

ولو فَعَلْتُ[2] ذلك، لقد رجعتَ إلىٰ بيتي، فأعْرَسْتَ فيه ببعض نسائك! قالت: فتبسم رسول الله ـ ﷺ.. الحديث وهو طويل[3].

فقد تبسم ﷺ واحتمل غيرتها ودلالها، واتسعت نفسه لقولها: واثُكْلَيَاهُ! والله إني لأظُنُّكَ تُحِبُّ موتي! ولو فعلتُ ذلك، لقد رجعتَ إلىٰ بيتي، فأعرستَ فيه ببعض نسائك!

(١) من الغيرة.

(٢) هذا من بلاغتها العالية، تقول عن الموت: لو فعلت ذلك، تعني لو وقع ذلك بي، أي: لو مُتُّ.

(٣) الحديث في الصحيحين وغيرهما، انظر جماع رواياته في الجامع الصحيح للسنن والمسانيد ١١٩/١٥

۞ مكاشفات الحب:

وهذا القدر الذي اقتطفتُه لك من الحديث أُحِبُّ لك أن تضعَهُ في سياقه الشريف؛ لتعلم ما هنالك من أنوار وأسرار.

فهذه أمنا ﵂ لا تُطيق مثقالَ ذرةٍ من التغَيُّرِ تمس رسول الله ﷺ، ولو كان ذلك نقصَ حظِّها من بركاتِ هِدَاياتِه ووَصَايَاه التي كان يُتْحِفُها بها كلما مَرَّ ببيتها ﵂.

والمحبُّ الصادق لا يُطيق أدنىٰ مِساسٍ يطوف بحبيبه، ولا يرضىٰ بنقصِ مثلِ الحرفِ يستَقِي منه بركةً ناضِرَةً، وطُمَأْنِينَةً وارفة.

فانظر هنا، مر ثلاثٌ لم يُلقِ النبي ﷺ إليها كلمةً مما كانت قد اعتادته منه، فأصابها الهمُّ، وعصَبَتْ رأسها، وجلستْ حيثُ يَمُرُّ بها ﷺ، جِلسةَ من تعلم أنه هو أيضًا لا يُطيق عليها مسًّا!

وهو الأمر الذي أهمَّهَا فقدُه عند بدء رجفة الإفك، وخوضِ من خاضَ في بُهْتَانه، وهي في بيتها مريضةٌ لا تعلم، فقالت: «وهو يَرِيبُني في وجعي أَنِّي لا أعرف من رسول الله ـ ﷺ ـ اللُّطفَ الذي كنتُ أرىٰ منه حين أشتكي».

ثم لعل في جواب رسول الله ﷺ أَمَّنَا ﵂؛ إشكالًا يعرض لبعض الناس فيقول: كيف ـ وأحب الناس إليه مريضة تشتكي ـ يقول لها ما قال من حديث الموت؟ ومعلومٌ أنَّ النفوس قد يثقل عليها عند المرض أن يطوف بها طائف الموت، فكيف بالحديث عنه؟! والرسول ﷺ أعظم الناس خُلُقًا، وأَطْيَبُ الخَلقِ قَولا؟

وعندي أنَّ جوابه هاهنا إشارة جليلة على جلال لطف رسول الله ﷺ، ورحمته بالصديقةِ، وحبه لها رضي الله عنها.

وتفسير ذلك ـ والله أعلم ـ أنه قد علم بما علَّمَه اللهُ رب العالمين أنه مرتحلٌ قد دنا مِيعادُ لَحاقه بالرفيق الأعلى، وهو يرفُقُ بها، فيَمْهَدُ لها الأمر بالإشارة المستترة، والعبارة المُحَجَّبة بظلال المجازِ؛ نبأ الرحيل ولوعة الفراق بالموت.

والإنسان الرحيم يَنْبِذُ الكلمةَ مُبْهَمَةً مُجملةً في صدر من يحب، ويدعها تعمل في نفسه فتكشف عن معانيها معنىً معنًى، حتى إذا ما اكتمل المعنى وانتقل من ظلال الظن إلى شمس اليقين؛ كان يكون الوقعُ أرفقَ بالعبد وتكون التوطئة أعونَ له على الاحتمال.

فكيف بأرحم الخلق مع أحب الناس إليه ﷺ؟!

ولقد كان يقعُ لها من قبلُ المرضُ وتشتكي رضي الله عنها، وما كان يكون منه إليها حديثٌ عن الموت والجنازة، وإنما هو اللُّطْفُ الرحيمُ، والحنان الدافِئُ منه ﷺ.

لكنه هنا ألمح ـ والعلم عند الله ـ إلى معنى الفراق تَوْطِئَةً وتَهْيِئَةً ورِفقًا بحبيبته رضي الله عنها.

وبقية الحديث تشهد لهذا المعنى، إذ قال رسول الله ﷺ لها بعد كلامه عن الموت: «لقد هَمَمْتُ، أو أردتُ أن أُرسلَ إلى أبي بكر وابنِه حتى أكتُبَ كتابًا؛ فإني أخاف أنْ يتمَنَّى مُتَمَنٍّ، ويقول قائل: أنا أولى[1]! ثم قلت: يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر».

(١) يعني بالخلافة.

ثم بُدِئَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بوجعه الذي مات فيه[1].

فهذا كله شاهد على معرفته ﷺ قُرْبَ لحَاقِه بالرَّفيق الأعلى.

ثم إنه ـ وهذا معنى خفيٌّ دقيقٌ ـ كأنما أرادها ﷺ معه هنالك محبة واستئناسًا، فجرى كلامه بلسان المحب على سبيل الرجاء والتعلل، وهو يحبها ﷺ، ويحب صحبتها رضي الله عنها، فكأنما أراد أن يُقَدِّمها بين يديه، وأنْ تنالَ بركةَ صَلَاتِه عليها، ودُعَائِه لها.

وقد أنبأها بذلك ﷺ في بيانٍ فردٍ لم يُسمَعْ بمثله في باب الحب، فقال: «إنه ليُهَوِّنُ عليَّ الموتَ أن أُريتُكِ زوجتي في الجنة»[2].

يقول أبو الفداء ابن كثير رحمه الله تعليقا على هذا الحديث: «وهذا دليلٌ على شدة محبته عليه السلام لعائشة رضي الله عنها. وقد ذكر الناس معانيَ كثيرةً في كثرة المحبة، ولم يبلغ أحدهم هذا المبلغ، وما ذاك إلا لأنهم يبالغون كلامًا لا حقيقة له، وهذا كلامُ حقٍّ لا مَحَالة ولا شك فيه»[3]. اهـ

ثم رأيت بعد أن تفضَّل الله تعالى عليَّ بهذا النظر ـ فصلًا نفيسًا شريفَ القدر للإمام القَسْطَلَّاني رحمه الله، ففرحتُ به كثيرا؛ إذْ وافقَ ما هداني الله تعالى إليه استنباطًا، فالحمد لله على فضله ورحمته.

قال رحمه الله: «قال الحسن: لما كرهت الأنبياء الموت هون الله عليهم ذلك

(١) في الصحيحين وغيرهما.

(٢) زوائد الزهد لحسين المروزي٢/٢٠٧، وبمعناه في المسند٤١/٥١٩ ح ٢٥٠٧٥. وقد حسَّنه الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٦/٨٦٧ ح ٢٨٦٧.

(٣) البداية والنهاية ٥/٢٣٩.

بلقاء الله، وبكل ما أحبوا من تحفة أو كرامة، حتىٰ إن نفس أحدهم لتنزع من بين جنبيه وهو محب لذلك، لما قد مثل له.

وفي المسند عن عائشة أيضا: أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إنه ليَهُون عليَّ الموتُ؛ لأني رأيت بياضَ كفِّ عائشة في الجنة». وخرجه ابن سعد وغيره مرسلاً: أنه ـ ﷺ ـ قال: «لقد رأيتها في الجنة، حتىٰ ليُهَوَّنُ عليَّ بذلك موتي، كأني أرىٰ كفيها»، يعني عائشة.

فقد كان ـ ﷺ ـ يحب عائشة حبًّا شديدا، حتىٰ لا يكاد يصبر عنها، فمُثِّلَتْ له بين يديه في الجنة ليُهَوَّنَ عليه موتُه؛ فإنَّ العيش إنما يطيب باجتماع الأحبة.

ولهذا قال لها في ابتداء مرضه لما قالت: وارأساه: «وددتُ أنَّ ذلك كان وأنا حيٌّ فأصلي عليكِ وأدفنكِ»، فعَظُمَ ذلك عليها، وظنَّت أنه يحب فراقها، وإنما ـ ﷺ ـ يريد تعجيلَها بين يديه ليَقْرُبَ اجتماعهما[1]. اهـ

ولهذا المعنىٰ الشريف صلةٌ باستبطائه ﷺ يوم عائشة رضي الله عنها، حين كان في أيامه الأخيرة ﷺ، فيقول كل يوم: أين أنا أين أنا؟ استبطاء ليومها وتشوُّقًا إليه، حتىٰ إذا كان يومُها، سكن بأبي هو وأمي ﷺ[2].

ويوم نزلت براءة أمنا المباركة رضي الله عنها، وقد لقيت ما لقيت من شُوَاظِ الآلام، واحتملتْ صغيرةً[3] رجَفَاتِ الإفك وصَعَقَاتِ البُهتان؛ سطَعَ البِشْرُ في وجه رسول الله ﷺ، فكانت أولَّ كلمة تكلم بها أن قال:

(١) (٣/٥٥٠ ـ ٥٥١) المواهب اللدنية باختصار

(٢) صحيح البخاري ح (١٣٨٩).

(٣) كان سنها أربعة عشر عاما.

«أبشري يا عائشة! أمَّا الله فقد بَرَّأَكِ».

قالت: وكنتُ أشدَّ ما كنتُ غضبًا، فقالت لي أمي: قُومِي إليه.

فقلت: لا والله! لا أقوم إليه، ولا أحمد، ولا أحمدكما؛ فإني لا أحمد إلا الله ﷻ الذي أنزل براءتي، لقد سَمِعْتُمُوه فما أَنْكَرْتُموه، ولا غَيَّرتموه[1].

ولكي أَدُلَّك على إفساحه مساحاتِ القول لها، لاسيما في حادثة الإفك بعد نزول براءتها، أورد لك أطرافَ الرواية، وقد جمعها الحافظ في الفتح، وفيها بيان لما قالته غضبًا ومَوْجِدَةً[2]، ويقينًا بمكانتها من النبي ﷺ واتساع صدره لها واحتماله لما قد يقع منها.

قال الحافظ[3]: «قوله: فقالت أمي: قومي إليه، قال: فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله.

في رواية صالح: فقالت لي أمي قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمده ولا أحمد إلا الله الذي أنزل براءتي.

وفي رواية الطبري من هذا الوجه: أحمد الله لا إياكما.

وفي رواية ابن جُرَيْج: فقلت بحمد الله وذَمِّكُمَا.

وفي رواية أبي أويس: نحمد الله ولا نحمدكم.

---

(١) انظر مختصر صحيح البخاري ١٧٤٨.

(٢) الموجدة الحزن الدفين.

(٣) الفتح ٨/٤٤٧ مختصرًا.

وفي رواية أمِّ رومان وكذا في حديث أبي هريرة: فقالت: نحمد الله، لا نحمدك.

وفي رواية ابن حاطبٍ: والله لا نحمدك، ولا نحمد أصحابك!

وفي رواية مِقْسَمٍ والأسود، وكذا في حديث ابن عباس: ولا نحمدك ولا نحمد أصحابك!

وزاد في رواية الأسود عن عائشة: وأخذ رسول الله ﷺ بيدي، فانتزعتُ يدي منه، فنهرني أبو بكرٍ.

وعذرها في إطلاق ذلك ما ذكَرَتْه من الذي خامَرَها[1] من الغضب، من كونهم لم يبادروا بتكذيب من قال فيها ما قال، مع تحقُّقِهم حُسْنَ طريقتِها. قال ابن الجوزي: إنما قالتْ ذلك إدلالاً، كما يُدِلُّ الحبيبُ على حبيبه.. وما أضافته إليه من الألفاظ المذكورة كان من باعِثِ الغضب». اهـ

۞ أمِنةٌ يا جِراح الحبيب!

ولابد هنا من الإشارة إلى أصل نافع شريف، وهو أن هذا الغضب في هذه الواقعة خاصةً له دلالةٌ عظيمةٌ بيقينٍ على براءة أمنا وسَلَامتها من ثرثرة البُهتان ورُجُوم الكَذَبةِ المنافقين؛ فإن من شواهد الصدق وعلائم الشرف أن جراحات الأذى تبقى كاويةً تتلظَّى في نفس صاحبِها الصادقِ البريءِ، ولو بعدَ سُطُوع

(١) داخَلها من الغضب.

براءته؛ لأنَّ نفسه لم تزل مُثْقَلَةً ترْسُف في أسْمَالِ الألم، وسرابيل الهموم، فإذا ما هبَّت نسائم البراءةِ الإلَهية، بقِيَ الإنسان ومَرَاجِلُه تسْكُن شيئًا فشيئًا؛ لِعِظَمِ ما لَقِيَه، وهَوْلِه الهائلِ في نفسه!

أما المُريب فيكون خفيفًا عَجِلا إلىٰ وَهْم براءته، سريعًا إلىٰ الإجابة بأدنىٰ إشارة؛ لأن ألمه زيفٌ، وهَمَّه هَباء، فهو يُحسن يُسْرِع النُّهُوضَ من حالٍ إلىٰ حالٍ، مُتَقَلِّبًا مُتَلَوِّنا، ليس فيه ثِقَلُ الصدق ووقارُ البراءة!

فكان غضبُها ترجمانَ شرفها المُنيف، ورفِعتها السامية، وفراغ نفسها من أن يخطر لها هذا الشر ببال، رضي الله عنها وأرضاها.

❁ فَلَك الرضا:

وقبل أن أغادر بيانَ اختصاصِ أمِّنا بمساحاتٍ لم تكن لغيرها، أُحِبُّ أن تعلم أن هذا كُلَّه كان يكون منها فيما علِمَتْه يقعُ منه ﷺ موقعَ الرضا، فتدور في فَلَكِه لا تُغادره، وحاشاها أن تقتحمَ كلمةً تظنُّ ظنًّا أنها تُغضبه أبدا، فإذا كان كذلك ووقع منها شيء، وجِلَتْ وجلًا شديدًا، واستعاذتْ بالله تعالىٰ من غضب رسول الله ﷺ وبادرتْ مُهَرْوِلَةً إلىٰ ترك الذي أغضبه إلىٰ فعل ما يحب.

قالت رضي الله عنها: استأذنتْ هالَةُ بنت خُوَيلد أختُ خديجةَ علىٰ رسول الله ﷺ، فعرف استئذانَ خديجةَ، فارتاع[1] لذلك فقال: اللهم هالة! قالت: فغِرْتُ فقلت: خديجة! كأنه لم يكن في الدنيا امرأةٌ إلا خَديجة[2]!! ما تَذْكُر من عجوزٍ من عجائز

(١) الروعة ما يعتري المحب عند ذكر حبيبه. وفي بعض الكتب: فارتاح، وأحسبه تصحيفا.
(٢) البخاري ح٣٦٠٧.

قريشٍ، حمراءِ الشِّدْقَيْنِ[١] هَلَكَتْ في الدَّهر، قد أبدلكَ الله خيرا منها[٢].

قالت: فتمَعَّرَ وجْهُه تمَعُّرًا[٣] ما كنتُ أراه إلا عند نزول الوحي، أو عند المَخِيلَةِ[٤] حتىٰ ينظرَ: أرحمةٌ أم عذابٌ[٥].

وقال: ما أبدلني الله ـ ﷻ ـ خيرًا منها، قد آمنتْ بي إذْ كفَرَ بي الناس، وصدَّقَتْني إذْ كَذَّبني الناس، وواسَتْنِي بمالها إذْ حَرَمَنِي الناس، ورزقني الله ـ ﷻ ـ ولدها إذْ حَرَمَنِي أولادَ النساء، إنِّي قد رُزِقْتُ حُبَّها[٦].

فقالت: قلت: يا رسولَ اللهِ! اعفُ عني، عفا الله عنك، والله! لا تسْمَعُني أذكرُ خديجةَ بعد هذا اليومِ بشيء تكرهه[٧].

وفي الشريعة للآجُرِّي قالتْ أُمُّنا:

كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتىٰ يذكر خديجة، فيُحْسِن عليها الثناء، فذكرها يومًا من الأيام، فأدركتني الغَيْرَةُ فقلت: هل كانت إلا عَجُوزًا، فقد أبدلَكَ الله ﷻ خَيْرًا منها!

فغضِب حتىٰ اهتز مُقَدَّمُ شعره من الغضب، ثم قال: «لا واللهِ! ما أخْلَفَ الله

(١) يعني كبيرة السن سقطت أسنانها.
(٢) هذا القدر في البخاري ح ٣٦١٠.
(٣) تغير غضبا عليه صلوات الله وسلامه.
(٤) يعني السحابة، خشيةً من رب العالمين. وفي رواية: مخيلة البرق، كما في المستدرك ح ٧٧٧١، بسند قال فيه: علىٰ شرط مسلم
(٥) في المسند ح ٢٥٢٥١.
(٦) مسلم ح٢٤٣٥.
(٧) رواه الطبراني في الكبير (٢٣/١١)

لي خيرًا منها، وقد آمنَتْ بي إذْ كفَر بي الناس، وصَدَّقَتْنِي وكذَّبَنِي الناس، وواسَتْنِي من مالها إذْ حَرَمني الناسُ، ورزَقَنِي اللهُ ﷻ الأولادَ منها، إذ حَرَمَني أولادَ النساء».

قالت عائشة ﵂: فقلت بيني وبين نفسي: لا أذْكُرُها بسيئةٍ أبدا»[1].

ولذلك كانت تُطَالِعُ وجْهَهُ تقرأ فيه الرضا أو ضِدَّه، قبل أن تُقْدِم على شيء، ولو كان فيه انتصارُها لنفسها، خشيةَ أن تقولَ أو تعملَ ما لا يَرْضَى فيغضبَ بأبي هو وأمي ﷺ.

ولقد جاءت أمنا زينب بنت جحش ﵂ فقالتْ ما شاءَتْ غضَبًا من أمنا، فما كان من أُمِّنا إلا مراقبةُ مرادِ رسولِ الله ﷺ.

وتقُصُّ ذلك فتقول ﵂: ثم وقَعَتْ بي، فاستطَالَتْ عَلَيَّ، وأنا أرْقُبُ رسولَ الله ﷺ، وأَرْقُبُ طَرْفَه، هل يأْذَنُ لي فيها.

قالت: فلم تَبْرَح زينبُ حتى عَرَفْتُ أنَّ رسول الله ﷺ لا يَكْرَهُ أن أنتصر، قالت: فلما وقعتُ بها لم أَنْشَبْهَا حتى أَنْحَيْتُ عليها[2]!

قالت: فقال رسول الله ﷺ وتبسَّم: إنها «ابنة أبي بكر»[3].

(١) الشريعة للآجري ح١٦٨١.
(٢) يعني أفحمتها بالقول وغلبتها.
(٣) مسلم ح ٢٤٤٢.

وبعدُ.. فذلك الاتساع كان مساحةَ حُبٍّ ودَلَالٍ، يَدَعُها النبي ﷺ فيه حُبًّا لها، وبيانًا لمنزلتها التي لا يُقَارِبُها فيها أحد، وما سوىٰ ذلك: فمنها الإجلال والأدب وتمام الامتثال، لا تتقدم بين يديه ﷺ، ولا تقرب ما يكره أبدا عليها رضوان الله تعالىٰ.

بريق الصفاء

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ٢٣].

للصفاء بريق يلتمع في قلوب الصديقين، كأنَّ قلوبهم مرايا السماء نقاءً وارتفاعا عن ضَحْضَاحِ الكدر[١] والحقد والضغينة.

ولقد وُهِبت أُمُّنا الصديقة من الصفاء حظًّا لا ينتهي العجبُ منه، وكنتُ كلما أدَرْتُ حَدَقَةَ بصيرتي في مواقفها وشهاداتِها، تسْرِقُني من قَبْضَةِ الزَّمَن دهشةٌ تغدو بي وتروح في الأحاديث والآثار، ثم أعود مُتَمْتِمًا: سبحان مَن برأكِ يا أُمَّاهُ فاصطفاكِ لسيد الخلق ﷺ!

وإنك لتجد العبدَ الصالحَ قد يُبْسَطُ له في باب النفقة، أو في باب الصلاة، أو في بابٍ من أبواب الخير الكثيرة، غير أنه ربما حِرج[٢] صدُره عند ذكر فضائل غيره، فلربما كتَمَها، أو تحيَّفها[٣] فانتقَصَ منها، أو لبس ثَوْبَيْ زورٍ فادعىٰ لنفسه ما ليس لها، وزيَّن الخطأ الصِّرفَ لأنه صَدَر منه، ونَفِسَ[٤] علىٰ أخيه خيرا؛ لأنَّ

(١) الضحضاح هو الماء الضحل، لا ينفع وسرعان ما يتكدر. وكذلك صدور الحاقدين والحاسدين، تؤذي ولا تنفع، وليس فيها إلا الكدر.

(٢) ضاق واضطرب.

(٣) الحيف الظلم والانتقاص.

(٤) يعني حسد.

أخاه انفرد به عنه!

أمَّا الصِّدِّيقة المباركة ﵂ فقد كانت رأسًا في الصفاء، لها قلب مُعَلَّقٌ بالعرش، فيه الإخباتُ والصِّدق على أتمِّ ما يكونان في إنسان!

فكأنها ترجمةُ قوله ﷺ: لما سُئِل: أيُّ الناس أفضلُ؟ قال: «كل مَخْمومِ القلب، صَدُوقُ اللسان»، قالوا: صدوق اللسان، نعرفه، فما مَخْمُوم القلب؟ قال: «هو التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لا إثمَ فيه، ولا بَغْيَ، ولا غِلَّ، ولا حَسَد»[1].

ولقد كانت في الصدق ونقاء القلب معا سماءً صافيةً ليس فيها غَمَامُ الغِشِّ وسُحُب الضغينة، وإليك شواهدَ هذا بيضاءَ نقيةً تتلألأ بضياءٍ لا يخفت.

١ ـ توقيع الصِّدِّيقة:

وأولُ ذلك وأَبْيَنُه على سلامة الصدر وخُلوصِه من دَغَلِ الضغن، ما كان من شأنها في الإفك، ﵂؛ لأن الإفك هو أعظمُ بلاءٍ يتعرض له الإنسان بله المرأة، وقد كان ابتلاءً عظيما في وَقْعِه عليها، وفي معرفتها به، وفي تأخر الوحي، فهو محنة في وفد من المحن، جعله الله رفعة عظيمة لها وبيانا لجلال قدرها عند رب العالمين سبحانه وبحمده.

فلقد أُغشي عليها حين تحققت ما قال الناس فيها، ولقد همت أن تُلقي بنفسها في قَلِيبٍ من شِدَّة ما تَجِدُ من هَمٍّ وغَم، ومع كل هذه السُّعُر التي اشتعلت

(١) سنن ابن ماجه بسند صحيح ح ٤٢١٦.

في صدرها وأحاطت بها، لم يقع منها قط ما يضاد سلامة الصدر.

ولقد كان أول مشهد تسمع فيه ﵂ قول الأفاكين يوم خرجت مع أم مسطح ﵄.

تقول ﵂: فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أَبِي رُهْمٍ نَمْشِي، فَعَثَرَتْ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟! فَقَالَتْ: يَا هَنْتَاه، أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا؟

فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَىٰ مَرَضِي(١).

فهي تنكر عليها قبل معرفتها ما قِيل؛ أنْ تَسُبَّ رجلًا شهِدا بدرًا، ولو كان هذا الرجل ابنًا لها.

ثم هي لا تُتْبِع معرفتَها بما قيل، ووقوعِ مِسْطَحٍ ﵁ في ذلك تردِيدًا لما قال المنافقون؛ ذمًّا أو ثَلْبًا، بل لبِسَهَا الهمُّ فأسْكَتَها سُكوتًا ثقيلًا مُمْرِضًا!

وما ثارتْ أو سَعَتْ في اتخاذِ أمِّ مسطحٍ حزبًا ونَصِيرا، تشتفي بكلامها وتستثمر غضبها!

لا.. لم يكن منها من هذا شيءٌ، بل نَهَتْ عن الخوض قَبل عِلمها، ثم لما تحققت فعلمت، لم يغيرها ما علمت عن خُلُقِها الشريفِ ولسانها العَفِيف!

وهكذا الكبارُ في المضَائِق، تُحِيطُ بهم الهموم إحاطةَ الظُّلُمات بالنجم، لا يَزِيده سوادها إلا بريقًا ولَمَعانًا.

(١) البخاري ح (٢٦٦١).

والنفس الشريفة تعتَصِم بالخُلُق الشريفِ في تَلَوُّنات الحياة ؛ لأنها ما اتخذته حِلْيَةً تتزين بها ، بل هو أصلٌ ممتدٌّ بجذوره في شِعاب النفس .

والناظر في حديث الإفك يجد هذا الأصل العظيمَ من صفاءِ نفسها وسلامة صدرها ؛ مبثوثًا في الحديث كُلِّه مِن أوَّله إلىٰ آخره ، وسآتي في كتابنا هذا بنصه كاملا إن شاء الله لاحقًا .

ومن ذلك كلامها عن سعد بن عُبَادَة ﷺ ، ولا تنسَ ـ مرةً أخرىٰ ـ أنَّ كلامها هذا عنه بعد مَعْرِفَتِها ، وعِلْمِهَا ، ونُزُول براءتها ، تقول ﷺ:

فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ ، فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَىٰ أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا ، وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا ، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَىٰ أَهْلِي إِلَّا مَعِي» ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ، أَنَا وَاللهِ أَعْذُرُكَ مِنْهُ! إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا ، فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ .

فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ـ وَهُوَ سَيِّدُ الخَزْرَجِ ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ ـ فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ ، لَا تَقْتُلُهُ ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَىٰ ذَلِك .

وقد كان يمكنها أن تسرُدَ ما وقع خاليًا من توقِيعِ نفسِها الشريفةِ المُبَارَكةِ شهادةً لفضل سَعْدٍ ، وبيانًا لصَلَاحه!

لكنها تُطْعِمُ كلامَها من صَفَاء نفسها ، فيأتي كما ترىٰ أبيضَ نقيًّا خاليًا من دبيبِ البَغْضاء ونفَثَات الغِيبة والنَّميمة .

ثم لما عَرَضَتْ لذِكْرِ أُمِّنا زينبَ بنتِ جحش، وبينهما من أحاديث المنافسة والغَيْرَةِ ما بَيْنَهُما، لكنها تَذْكُرُها بكلامها الذي يحمل تَوْقِيع نفْسِها الشَّرِيفة المباركة، فتثني وتمدح وتُفَخِّم من أمرها تفخِيمًا!

فتقول عنها:

وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ لِزَيْنَبَ: «مَاذَا عَلِمْتِ، أَوْ رَأَيْتِ». فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَعَصَمَهَا اللهُ بِالوَرَعِ.

ولقد كان يتم الخبر دون هذا التوقيع الأخير من أمنا الصديقة رضي الله عنها، ولكن نفسها الزكية تفرح بالخير في غيرها، ولا تكتم ذكره ولو كان حديثها مستغنيا عن ذكره.

وهنا نكتةٌ شريفة، وهي أنك لن تجد في كلامها رضي الله عنها تجاعِيدَ المُعَقَّدِين الذين جعلوا من صدورهم حقَائِبَ حِقْدٍ، يحْفَظُون فيها دفاتر الناس ومواقِفَهُم وما قالوا وما فعلوا، فإذا ذَكَرُوا ما وقع لهم، أو ذُكِر بين أيديهم تلونوا واخْتَلَجُوا، ومادَتْ بِهِمُ الأرضُ، واتخذوا لأنفسهم سِيَاطًا من الكلام يجلدون بها الناسَ هِجَاءً وسَبًّا وشتْمًا ولَعْنًا!

والعبد كُلَّما كان راضيًا بالله، مستغنيًا بالله، موصولًا بالله، ريَّانَ القلب من كلام ربه، وذِكر رَبِّه، وكان صاحبَ صلَوَاتٍ وخَلَواتٍ وسَجَدَاتٍ ضارعة؛ كان يكون أسْلَمَ الناسِ صدْرًا وأهْنَأَهم نفسًا وأطْيَبَهُم عيشا، يذكُر ـ إن ذكر ـ أخاديدَ

الأذىٰ مُتَبَسِّمًا، ولعَلَّه لصفاء نفسه يستَغْفِر لمن وقَعُوا فيه أو خاضوا، وهذا هو الذي تراه كالشمس في أمنا ﵂ في أمر الإفك وهو البَلاء البلاءُ والفتنة الصَّمَّاء!

ثم انظر إليها وهي تسرد ما مرَّ معنا ذِكْرُه من حُبِّ نساءِ النبي ﷺ أن لا يكون اختصاصُه بالهديَّةِ من قِبَل الصحابة في يوم عائشة وحدَها، فانتَدَبْنَ لذلك فاطمةَ ﵇، ثم أمَّنا زينبَ ﵂.

قالت الصديقة ﵂:

فأرسل أزواج النبي (ﷺ) زينب، وهىٰ التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله (ﷺ)، ولم أرَ امرأةً قطُّ خيرًا في الدين من زينبَ، وأتْقَىٰ لله، وأصْدَقَ حديثًا، وأوْصَلَ للرَّحِم، وأعظمَ صَدَقَةً، وأشدَّ ابتذالًا لنفسها في العمل الذىٰ تَتَصَدَّق به، وتتقَرَّبُ به إلىٰ الله ﷻ.

أيُّ نفسٍ هذه التي كانت بين جَنْبَيْها ﵂؟!

أما كان يمكن أن تقول: وجاءتْ زينب، فقالت كَيْتَ وكيتَ، وقُلتُ كَيْتَ وكيت، فيتمَّ الخبر وتَكْملَ الفائدة؟

بلىٰ! كان ذلك ممكنًا، غير أنها ﵂ لا تدع مساحة للقول في بيان فضل غيرها حتىٰ تذكره وتتعرض له فرحةً به مُحِبَّةً له.

وهي التي قالت عن أمنا جويرية ﵂:

«**فَلَقَدْ أَعْتَقَ بِتَزْوِيجِهِ ﷺ إِيَّاهَا مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَمَا أَعْلَمُ**

امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَىٰ قَوْمِهَا مِنْهَا»

ومرة أخرىٰ! فقد كان ممكنًا أن تكتفي بالخبر عن عِتْق مائةٍ من بني المُصْطَلِق، وبه تتم الفائدة، لكنها تُلحِقُ ذلك بتوقيعها النَّبِيل «فَمَا أَعْلَمُ امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَىٰ قَوْمِهَا مِنْهَا»!

وهي كذلك التي أثنت علىٰ براعة أمنا صفية في صنع الطعام، فقالت: ما رأيتُ صانعًا طعامًا مِثْلَ صَفِيَّة، صَنَعَتْ لرسول الله ـ ﷺ ـ طعاماً، فبَعَثَتْ به، فأخذني أفكَلٌ[1]، فكسرتُ الإناءَ، فقلتُ: يا رسول الله ـ ﷺ ـ ما كفَّارَةُ ما صَنَعْتُ؟ قال: «إناءٌ مثلُ إناءٍ، وطعامٌ مِثلُ طَعامٍ»[2].

وهي التي تسامَحَتْ مع أُخْتِها أمِّ المؤمنين أمِّ حبيبة ﵂، وكان منها ما يكون من صفاء النفس وسلامة السريرة:

عن عوف بن الحارث: سمعتُ عائشة تقول: دعتْنِي أمُّ حبيبةَ عند مَوْتِها، فقالتْ: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضَّرَائِر، فغَفَر اللهُ لي ولكِ ما كان من ذلك!

فقلتُ: غفَرَ الله لكِ ذلك كُلَّه، وحلَّلَكِ من ذلك!

فقالت: سَرَرْتِني، سَرَّكِ الله!

وأرسلت إلىٰ أم سلمة، فقالت لها مثل ذلك[3]!

---

(١) يعني رِعدة من الغيرة.

(٢) أبو داود ٣٥٦٨

(٣) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٨/١٠٠).

فما أجمل جوابها ﵂!

فهي تجيبها وتزيدها: «وحلَّلَكِ من ذلك»، وتذكر أن هذا كان ردَّ أمِّ سلمة أيضا، فَرِحةً لا ترىٰ نفسهَا صاحبةَ فضل، ولا أنها خيرٌ من غيرها، ولا تُجِيبُها إجابةً باردة غَثَّةً، بل تُجِيبها وتزيدها لتطمئن أختها وتفرح!

وهذا يفتح بابًا من القول في غاية الحسن، وهو أنك لن تَجِدَ من أُمِّنا ثناءً علىٰ نفسها في شيءٍ مازها اللهُ به، ولكنها حين تَسْرُد ما تسْرُد، تأتي به علىٰ سبيل الأمانة في الرواية، لا علىٰ سبيل التبَجُّح بذِكْر مناقِبها وما حباها الله به، فما قالت: كنتُ الأجملَ أو الأَكْمَل، أو الأحسنَ مَهارةً، أو الأفضلَ طعامًا، أو الأعْلَمَ بين نسائه، أو الأزكىٰ والأصلحَ، أو الأفصح لسانًا، بل كل مناقبها وما ترويه كان يكون علىٰ سبيل الأمانة في النقل، فهي تَذْكُره كما كان، فما كان فيه من مناقبِ غيرِها ذكرته **وزادته** من نفسها الزكية، وما كان من مناقبها ذكرته **لا تزيد فيه** حرفًا من ظلال نفسها، ولو بحق!

وهذا باب شريف جدا، فتدَبَّرْه؛ فإنَّ فيه فوائِدَ عظيمةً.

انظر إليها لا يفوتها أن تقول في موطن الشرف الأعظم حيث تنزل القرآن من لدن رب العالمين في شأنها: «ولكن والله ما كنتُ أظنُّ أنَّ الله منزلٌ في شأني وحيًا يُتلىٰ، ولشَأْنِي في نَفْسِي كانَ **أحْقَرَ** من أن يتكلم اللهُ فيَّ بأمرٍ يُتْلَىٰ، ولكن كنت أرجو أن يرىٰ رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها».

وهذا كان حالها حين غشيها كَرْبُ الموت بأثقاله، فاستأذن ابن عباس ﷺ في زيارتها، والإنسان في احتضاره أشدُّ شيءٍ شوقًا إلىٰ سماع ما يحدوه إلىٰ ربه مُطْمَئِنًّا ساكنًا راجيًا حسنَ الظَّنِّ به، لكنها ﷺ لِشِدَّة خشيتها وإخباتها كانت تفرَقُ[1] من تزكيته!

عن ابن أبي مليكة، قال: استأذنَ ابنُ عباس علىٰ عائشة فقالت: «لا حاجة لي بتزكيته»!

فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: «يا أُمَّتَاه، إن ابن عباس من صالح بَنِيكِ جاء يعودُكِ»!

قالت: «فأذن له»، فدخل عليها فقال: «يا أُمَّه! أبشري! فوالله ما بينكِ وبين أن تلقي محمدًا والأحِبَّةَ إلا أن يفارق روحُكِ جسدَك، كنتِ أحبَّ نساءِ رسول الله ﷺ إليه، ولم يكن رسول الله ﷺ يُحِبُّ إلا طَيِّبًا»!

قالت: «أيضا»!

قال: «هلكتْ قلادتُك بالأبواءِ، فأصبح رسول الله ﷺ يلتقطها، فلم يجدوا ماءً، فأنزل الله ﷻ (فتيمموا صعيدا طيبا)، فكان ذلك بسببك وبرَكَتِكِ ما أنزل الله تعالىٰ لهذه الأمة من الرخصة!

وكان من أمر مِسْطَحٍ ما كان، فأنزل الله تعالىٰ براءتَكِ من فوق سبع سماواته، فليس مسجدٌ يُذكَرُ اللهُ فيه إلا وشأنكِ يُتلىٰ فيه آناءَ الليلِ وأطراف النهار»!

---

(١) تخاف.

فقالت: «يا ابن عباس! دعني منك ومن تزكيتك! فواللهِ لوَدِدْتُ أنِّي كنتُ نَسيًا مَنْسِيًّا»[1]!

ولما أحست مرض الموت كَانَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَهَا أَنْ تُدْفَنَ فِي بَيْتِهَا ـ: إِنِّي أَحْدَثْتُ بَعْدَ رَسُوْلِ اللهِ ـ ﷺ ـ حَدَثًا، ادْفِنُوْنِي مَعَ أَزْوَاجِهِ[2].

مع أنها ما خرجَتْ إلا للإصلاح بين المسلمين، لكنها كَرِهَت خروجهَا وما كانت تذكره إلا تبكي حتىٰ تبُلَّ خمارها!

وهكذا كانت نفسها الشريفة إخباتا وفراغا من رؤية النفس، وصدقا بالغًا معها، رضي الله عنها وأرضاها.

٢ ـ إصفاء الفن:

كان ممن تعثر فوقع في أمر الإفك حسان رضي الله عنه وغفر له، فكان بعض الناس من بعد ينالون منه، فتكره أم المؤمنين هذا وتنهاهم عنه.

يقول عروة بن الزبير رضي الله عنه: كانت عائشة تكره أن يُسَبَّ عندها حسانُ، وتقول: إنه الذي قال:

فـــإن أبـــي ووالـــده وعِرضـــي ❦ لعِـــرض محمـــدٍ مـــنكم وِقـــاءُ

وإذا كان أمر الإفك عظيما، وهو كذلك، فإن أمر القتل عظيمٌ كذلك، وإن لها في ذلك موقفا عجيبًا من قاتل أخيها، رضي الله عنها.

(١) في المسند وغيره بسند قوي.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٩٣/٢

يقول عبد الرحمن بن ثُمَامَةَ المَهْرِيُّ: دخلنا على عائشة، فسألْتُنَا: كيف كان أميركم هذا وصاحبُكم في غَزَاتِكم ـ تعني مُعاويةَ بن خَدِيج؟

فقالوا: ما نَقِمْنَا[1] عليه شيئًا، وأثْنَوْا عليه خيرًا، قالوا: إنْ هلك بعيرٌ أخْلَفَ بعيرًا، وإنْ هلكَ فرس أخلف فرسا، وإن أَبَقَ[2] خادم أخلف خادما.

فقالت حينئذ: أستغفر الله، اللهم اغفر لي، إن كنتُ لَأَبْغَضُه من أجل أنه قتل أخي، وقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: اللهم مَنْ رَفَقَ بأمتي فارفق به، ومن شَقَّ عليهم فاشقُق عليه!

وهذا خبرٌ مُبينٌ بذاته دال على ما فيه من فضل شاهق، وروح علوية سماوية لا تعرف صنائع الأرضيين وضغائنهم.

٣ ـ نافذة الضوء

وهذه النفس الشريفة التي كانت عليها أمنا رضي الله عنها جعلتها ـ ولا عجب ـ نافذة الضوء التي تُطِلُّ منها أشعة مناقب الصالحين السابقين وفضائلهم، ترويها وتستكثر منها وتدل الناس عليها، وتضع فيها توقيع نفسها التي تلتفت إلى دقائق النفس الإنسانية وما يعتمل فيها بصدق عجيب آسر.

فالتي روت فضائل أمنا خديجة وذكرت مناقبها ونصرتها النبي ﷺ هي أمنا عائشة!

(١) كرهنا وأنكرنا.

(٢) فر من سيده.

والتي روت أن النبي ﷺ هو الذي أخبر فقال صراحةً عن أمنا خديجة: لا والله ما أبدلني الله بخير منها.. إلخ؛ هي أمنا عائشة.

والتي ذكرت أن فاطمة سيد نساء العالمين هي أمنا عائشة.

والتي كانت من رواة حديث الكساء، وهو الحديث الذي فيه:

خرج رسول الله ـ ﷺ ـ ذات غداة وعليه مِرْطٌ[1] مُرَحَّل[2] من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء عليٌّ فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣][3].

والتي قالت: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ سَمْتًا وَهَدْيًا وَدَلًّا ـ وَقَالَ الْحَسَنُ: حَدِيثًا، وَكَلَامًا، وَلَمْ يَذْكُرِ الْحَسَنُ السَّمْتَ، وَالْهَدْيَ، وَالدَّلَّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ فَاطِمَةَ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهَا كَانَتْ «إِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ قَامَ إِلَيْهَا فَأَخَذَ بِيَدِهَا، وَقَبَّلَهَا، وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ، وَكَانَ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا قَامَتْ إِلَيْهِ، فَأَخَذَتْ بِيَدِهِ فَقَبَّلَتْهُ، وَأَجْلَسَتْهُ فِي مَجْلِسِهَا»[4].

والتي قالت: ما رأيتُ قطُّ أحدًا أفضلَ من فاطمةَ غيرَ أبيها[5]؛ هي أمنا عائشة.

والتي كانت تُحَلِّي هذه المشاهِدَ بتوقيعها النبيلِ هي أمنا رضي الله عنها، فترصد

(١) المرط الكساء يُؤتزر به.
(٢) عليه صور الرحل، وقيل مخطط.
(٣) صحيح مسلم.
(٤) سنن أبي داود بسند صحيح ٤/٣٥٥ ح٥٢١٧
(٥) معجم الطبراني الأوسط ح (٢٧٢١).

تفاصيلَ لا يلتفت إليها غير صادقٍ في حبه، كقولها: «فجاءت فاطمة لا تُخطِئُ مِشيَتُها مِشيةَ النبي ﷺ».

وهذا لَحْظُ مُحِبٍّ، وتوقيعُ نقاء، كان يتم بغيره البيان، ولكنها تأبي أن تُفرغ كلامَها من توقيع نفسها الفردوسية.

والتي آثَرَتِ الفاروقَ بالدَّفْنِ بجوار النبي ﷺ، هي رضي الله عنها، وهذا تمام الإيثار والجود والله!

فقد أرسل ابنه عبدالله بن عمر وقال له وهو ينازع الموت: ائْتِ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَسَلِّمْ، وَقُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ، وَلَا تَقُلْ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَسْتُ الْيَوْمَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ».

فَأَتَاهَا ابْنُ عُمَرَ فَوَجَدَهَا قَاعِدَةً تَبْكِي، فَسَلَّمَ وَقَالَ: «اسْتَأْذَنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ». فَقَالَتْ: «كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي، وَلَأُوثِرَنَّهُ عَلَىٰ نَفْسِي»(١).

والتي أثنتْ علىٰ علي رضي الله عنه هي، فعَنْ شُرَيْحِ بْنِ هَانِئٍ، قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ أَسْأَلُهَا عَنِ الْمَسْحِ عَلَىٰ الْخُفَّيْنِ، فَقَالَتْ: عَلَيْكَ بِابْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَسَلْهُ فَإِنَّهُ كَانَ يُسَافِرُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ(٢).

ـ وفي رواية أخرىٰ عنه قال: «سَأَلْتُ عائشةَ، عَنِ الْمَسْحِ عَلَىٰ الْخُفَّيْنِ، فَقَالَتْ: ائْتِ عَلِيًّا فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنِّي».

(١) صحيح البخاري ح (٣٧٠٠).
(٢) مسلم ١/٢٣٢ ح ٢٧٦.

بابٌ في الصدق مع النفس

والتي روت مشاهد غيرتها وغضبها وما كان يعتمل في نفسها لا تتزيد فتسقط ما عساه يكون من شرَرِ الغيرة وهمهمات النفس ؛ هي!

وهذا باب حسن جدا في الصدق ، ومعرفة الإنسان بنفسه .

وقد مر بنا أن النبي ـ ﷺ ـ كان إذا خرج أقرع بين نسائه ، فطارت القرعة لعائشة وحفصة ، وفيه ذكرها غيرتها وهي تدعو فتقول تقول: يا رب! سلط علي عقربا أو حية تلدغني! ولا أستطيع أن أقول له شيئا[1]

وهي التي حدثت بما كان في نفسها لحظةَ رأتْ أمَّنَا جويريةَ رضي الله عنها ، فأخبرت عن غَيْرَتِها منها ، كراهيةَ أن يراها النبي ﷺ فيتزوجها .

ثم هي تختم الخبر بالثناء عليها وأنها كانت بركةً على قومها ، في أمانةٍ فريدةٍ وصدقٍ مع النفس عظيم .

فانظر إليها تقص الخبر فتقول:

لَمَّا قَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَبَايَا بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَقَعَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ ـ أَوْ لِابْنِ عَمٍّ لَهُ ـ وَكَاتَبَتْهُ عَلَى نَفْسِهَا ، وَكَانَتْ امْرَأَةً حُلْوَةً مُلَّاحَةً[2] ، لَا يَرَاهَا أَحَدٌ إِلَّا أَخَذَتْ بِنَفْسِهِ ، فَأَتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ

(١) البخاري ح ٥٢١١ .
(٢) مُلَّاحة: شديدة الجمال ، كما يقال حُسَّانة وكُرَّامَة .

تَسْتَعِينُهُ فِي كِتَابَتِهَا، قَالَتْ: فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا عَلَىٰ بَابِ حُجْرَتِي فَكَرِهْتُهَا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَرَىٰ مِنْهَا مَا رَأَيْتُ!

فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرَارٍ سَيِّدِ قَوْمِهِ، وَقَدْ أَصَابَنِي مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ، فَوَقَعْتُ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ ـ أَوْ لِابْنِ عَمٍّ لَهُ ـ فَكَاتَبْتُهُ عَلَىٰ نَفْسِي، فَجِئْتُكَ أَسْتَعِينُكَ عَلَىٰ كِتَابَتِي. قَالَ: «فَهَلْ لَكِ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟». قَالَتْ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «أَقْضِي كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ» قَالَتْ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «قَدْ فَعَلْتُ».

قَالَتْ: وَخَرَجَ الْخَبَرُ إِلَى النَّاسِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَزَوَّجَ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ، فَقَالَ النَّاسُ: أَصْهَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ! فَأَرْسَلُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ.

قَالَتْ: فَلَقَدْ أَعْتَقَ بِتَزْوِيجِهِ إِيَّاهَا مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَمَا أَعْلَمُ امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَىٰ قَوْمِهَا مِنْهَا[1].

وهي عجيبة رضي الله عنها في غيرتها، تُخْبِر بها، ولا تُنكرها، ثم هي لا تجعلها أبدا بابًا لحجْبِ فضائل غيرها، ولا سبيلًا لطَمْسِ مناقبه.

فأنت تراها شهدت لغيرها من جاراتها، بالصلاح، وبالجمال، وبالمهارة في الطعام، وبالجود والكرم، وكل هذا عندي عظيم شريف، ولكن أن تشهد امرأة لأخرىٰ بالجمال الباهر فهذا أعظم، ولكنه صدقها الفريد رضي الله عنها!

(١) المسند ٢٦٣٦٥. بسند حسن.

وهذا أصل مُطَّرِدٌ في حياتها ﵂، وما ذلك إلا بيانًا لا يضطرب عن معدن الصدق والديانة والشرف الذي كانت عليه ﵂.

فهي تقول:

«ما غِرْتُ علىٰ امرأةٍ قطُّ ما غِرتُ علىٰ خديجة، مما رأيت من ذكر رسول الله ﷺ لها، ولقد أمره رَبُّه أنْ يُبَشِّرَها ببيتٍ في الجنةِ من قَصَبٍ».

وهي التي ذكرت غضب النبي ﷺ منها حين تناولتْهَا بلسانها وقالتْ عنها عجوزٌ حمراءُ الشِّدْقَيْن، فقالت:

كان رسول الله ﷺ إذا كان خديجة[1] **لم يكد يسأم من ثناء عليها، واستغفار لها**، فذكرها يومًا، فاحتملتني الغيرةُ، فقلت: لقد عوَّضَكَ الله من كبيرةِ السِّنِّ! فرأيته غضب غضبًا أُسْقِطْتُ في خَلَدي[2]، وقلت في نفسي: اللهم إنَّك إن أذهبتَ غضَب رسولك عني لم أَعُدْ إلىٰ ذِكْرِها بسُوء!

فلما رأىٰ النبي ﷺ ما لقيتُ[3] قال: «كيف قلتِ! والله لقد آمنتْ بي إذ كفرَ بي الناس، وآوتْنِي إذ رفضني الناس، وصدَّقَتْني إذْ كَذَبَنِي الناس، ورُزِقْتُ منها الولد، وحُرِمْتُمُوه مني». قالت: فغدا وراح عليَّ بها شهرا.

وأحسِنِ التأملَ في هذا الحديث طويلا، كيف أتتْ به علىٰ وجهه كاملًا لا تنقُصُ منه حرفًا! وكله بيانٌ عن فضل أمنا خديجة ﵂، وليس فيه ذِكْرُ شيءٍ من فضائل الصِّدِّيقة ﵂، بل فيه ذكرُ غَضَبِها، وغيرتها، وعَتْب النبي ﷺ عليها.

(١) يعني ذِكر خديجة، وشأن من شئون خديجة وشيء يتعلق بخديجة.

(٢) يعني ركبها الهم المربك.

(٣) أي من الهم والخوف

ومن مواقفها المباركة ما روته هي بنفسها عن نفسها وما وقع في قلبها يوما ما، فقالت:

أُهدِي لرسول الله ﷺ قلادةٌ مُلَمَّعَةً بالذهب، ونساؤه مجتَمِعَاتٌ في بيتٍ كلُّهُن، وأمامةُ بنت أبي العاص[1] جاريةٌ تلعبُ في جانب البيت بالتراب، فقال رسول الله ﷺ: «كيف ترين هذه؟»

فنظرنا إليها، فقلنا: يا رسول الله، ما رأينا أحسنَ مِن هذه قطُّ ولا أعجبَ!

فقال: «اردُدْنها إليَّ»، فلمَّا أخذها قال: «واللهِ لَأَضَعَنَّها في رقبةِ أحبِّ أهلِ البيتِ إليَّ».

قالت عائشة: فأظلمتْ عليَّ الأرضُ بيني وبينه، خشيةَ أن يضَعَها في رقبة غيري منهنَّ، ولا أُراهُنَّ إلَّا أصابَهُنَّ مثلُ الذي أصابني، ووجِمْنا جميعًا سُكُوتا،

فأقبل بها حتَّىٰ وضعها في رقبة أمامة؛ فسُرِّيَ عنّا![2]

ولها فيما سوىٰ ذلك ـ أعني بعيدا عن الغيرة ـ مواقف ناطقة بهذا الصفاء الجميل منها رضي الله عنها:

ومن طرائف ذلك ما وقع مع المنكدر والد الإمام الجليل محمد بن المنكدر.

فقد ذكر ابن سعد رحمه الله في الطبقات بسنده عَنْ أَبِي مَعْشَرٍ. قَالَ: دَخَلَ الْمُنْكَدِرُ عَلَىٰ عَائِشَةَ فَقَالَ: إِنِّي قَدْ أَصَابَتْنِي حَاجَةٌ فَأَعِينِينِي.

(١) حفيدته رضي الله عنها.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ح١٠٨٠.

فَقَالَتْ: مَا عِنْدِي شَيْءٌ! لَوْ كَانَتْ عِنْدِي عَشَرَةُ آلافٍ لَبَعَثْتُ بِهَا إِلَيْكَ. فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدَهَا جَاءَتْهَا عَشَرَةُ آلافٍ مِنْ عِنْدِ خَالِدِ بْنِ أُسَيْدٍ، فَقَالَتْ مَا أَوْشَكَ مَا ابْتُلِيتُ![1]

قال: ثُمَّ أَرْسَلَتْ فِي إِثْرِهِ.. فَدَفَعَتْهَا إِلَيْهِ. فَدَخَلَ السُّوقَ فَاشْتَرَىٰ جَارِيَةً بِأَلْفَيْ دِرْهَمٍ. فَوَلَدَتْ لَهُ ثَلاثَةً. فَكَانُوا عَبَّادَ الْمَدِينَةِ: مُحَمَّدًا. وَأَبَا بَكْرٍ. وَعُمَرَ. بَنِي الْمُنْكَدِرِ[2].

انظر جمال الصدق مع النفس، وهمهمتها اللطيفةَ فيما بينها وبين نفسها!

وهي التي ذكرت ما وقع منها في حق أمنا صفية ﵂، فقالت:

عن عائشة، قالت: قلت: للنبي ـ ﷺ ـ: حسبُكَ، من صفِيّة كذا وكذا ـ قال غيرُ مُسَدَّد: تعني قصيرةً ـ فقال: «لقد قلتِ كلمةً لو مُزِجَت بماء البحرِ لمزجتْه» قالت: وحكيتُ له إنساناً، فقال: «ما أُحِبُّ أني حكيتُ إنساناً وإن لي كذا وكذا»[3].

❁ غيرة منيرة

وهذا منبئٌ بيانًا لا ريب فيه، أن غيرة أم المؤمنين كانت محفوفةً بأنوار إيمانها، تَعْرِض لها من منابعِ الحبِّ لا الحقد، ثم تكُفُّها بدينها وتقهرها بتقواها، فلئن كانت الغيرةُ نارًا توقد، فإنها هنا سرعان ما تؤوب لِدِينِها فتكون بَرْدًا وسلاما

(١) تعني أنها وعدته بمال فجاءها المال فكان ابتلاء لصدقها!

(٢) الطبقات لابن سعد (٥/٣٥٧).

(٣) سنن أبي داود (٤٨٧٥)، والترمذي (٢٥٠٢)

ونورا وحنانًا ، فهي وفيةٌ لحبها بالغيرة ، ووفية لدينها بالتقوىٰ .

فغيرتها كانت بيانًا عن عِظَم حبها للنبي ﷺ ، وهو حبٌّ أخذَ عليها أنفاسها وكسا قلبَها وحَلَّ منها مَحَلَّ السمع والبصر ، بل والروح ، ووالله لو لم يصحبْ هذا الحبَّ إيمانٌ راسخٌ ودين ثخين ؛ ما استقام لها عيشٌ ولا طاب لها وجود .

وإذن فقد آن لي أن أحدثك موجزا عن ذلك الحب وآثاره في حياتها مع النبي ﷺ ، وبعد وفاته بأبي هو وأمي ؛ ليكون ابتداء كتابنا بالحب وختامه بالحب .

كتاب الحب

«وكل حركةٍ في العالم العلوي والسفلي فأصلها المحبة»[1].

مثلي ككل مسلم يعلم أن الصحابة ﷺ كانوا أعظم الناس حبا للنبي ﷺ، وأن جذر هذا الحب وقاعدة أنواره راسخ في قلوبهم رسوخ الجبال، وأنهم يتفاضلون في هذا الباب، كلٌّ وما أنعم الله عليه من بركات الاصطفاء وأنوار الاختصاص.

وكذلك كل مسلم يعلم أن أَذْكَرَ الناسِ في باب الحب هي الصديقة ﷺ، كل هذا معلوم مفروغ منه عند كل ذي نُهْيَة[2] ودين.

لكني يوم صمدت إلىٰ هذا المبحث أتلمس شواهده، وأتأمل دلائله؛ أخذتني مهابةٌ شديدةٌ كادت تسُدُّ عليَّ منافذ القول، وجعلتُ أُصَاوِلُ آثارَها في نفسي طويلًا حتىٰ أُحْسِنَ البيانَ عن هذا الأصلِ العظيمِ الجليلِ.

وكنت كما رُوِيَ عن أبي عبد الله الشافعي ﷺ، حين رام الحديث عن مسألةٍ من المسائل: إنِّي لأَجِدُ بيانَها في قلبي ولا أَجِدُه في لساني.

وعلمتُ ـ وأنا المحجوبُ بنقصي وعللي وذنوبي ـ أنَّ فقدها النبي ﷺ، وارتحالَه عنها إلىٰ الرفيق الأعلىٰ مَذْهَبَةٌ للُّبِّ والعقلِ والفكر جميعًا، ولا أحسِبُ والله أن بقاءَها في هذه الدنيا ما كان ليكون إلا بعون خاص، ومعية إلٰهية مباركة.

(١) أبو عبد الله ابن قيم الجوزية ﷺ في روضة المحبين.

(٢) عقل.

وقد كنتُ نَوَيْتُ أن أُفرد بابًا للحديث عن علمها ﵂، وبابًا عن زُهْدِها، وبابًا عن كرمها، وبابًا عن إخباتها وخشوعها، وبابًا عن فصاحتها وبلاغتها...

ولكني وجدت أن أصل كل هذه الأبواب، وبابها الأعظم الذي تتفرع عنه هو الحب!

فأعَرْضت صفحًا عن إفراد تلك الخصال، وجعلتُها كلها هنا ثمرة من ثمار الحب.

وتفسير ذلك:

أنَّك مثلا إن نظرت في تبتلها وعبادتها لرأيت أن من المعروف عنها ﵂ سَرْدَها الصوم، فكانت تصوم الدهر إلا في أيام النهي.

فعن عبد الرحمن بن القاسم أخبرني عن القاسم أن عائشة كانت تصوم الدهر[1] وهي في الجود أمة وحدها، فقد كانت من أجْوَدِ النَّاس وأبْذَلِهم للصدقات، حتىٰ إن المال ليأتيها فتبذله كُلَّه في الناس، وتنسىٰ نفسَها.

والأخبار في هذا مستفيضة حافلةٌ.

فقد بعث معاوية ﵁ مرة إليها بمائة ألف درهم، فوالله ما أَمْسَتْ حتىٰ فرَّقَتْها.

فقالت لها مولاتها: لو اشتريتِ لنا منها بدرهم لحمًا؟

فقالت لها بلسان المشغول الناسي: ألا قلتِ لي؟!

(١) طبقات ابن سعد، واعلم أيها المبارك أن هذا الكتاب من أجل الكتب التي ينبغي العناية بها، وهو مغفول عنه إلا قليلا، فاحرص علىٰ قراءته وتدبره.

وعن عطاء: أن معاوية بعث إلىٰ عائشةَ بقلادةٍ بمائة ألف، فقسَّمَتْها بين أمهات المؤمنين.

وعن عروة أنها تصدقت بسبعين ألفًا؛ وإنها لتُرَقِّع جانِبَ درعها، ﵂.

وعن ابن المنكدر، عن أم ذَرَّةَ، قالت: بعث ابنُ الزبير إلىٰ عائشة بمالٍ في غِرَارَتَيْن[1]، يكون مائةَ ألفٍ، فدعَتْ بطَبَقٍ، فجعلتْ تُقَسِّم في الناس.

فلما أَمْسَتْ، قالت: هاتِي يا جاريةُ فُطُوري.

فقالت أُمُّ ذرَّة: يا أمَّ المؤمنين، أما استطعتِ أن تشتري لنا لحمًا بدِرْهَم؟

قالت: لا تُعَنِّفِيني، لو أَذْكَرْتِينِي لَفَعَلْتُ!

وعادةُ الناس عند النفقة البَدَاءةُ بأنفسهم أولا ثم الآخرين، ويُقال كرماء! لكن انظر إلىٰ أم المؤمنين تعلمْ كيف يكون الكرم!

ولقد كان يأتيها كما رأيتَ المال العظيم، فلو شاءت أن تكون من أكثر الناس مالا لكانت، ولكنها كانت في فطام عن الدنيا وإقبال تام علىٰ الآخرة.

والناس يذكرون علمها بالشرع وفقهها، وكذلك علمها بالطب وبالأنساب وبالشِّعر!

فقد كانت مَفْزَعَ الصحابة في الفتيا، وَحَلِّ المُعْضِلات، والفَصْلِ حين يختلفون، وهي أعلم نساء الأمة بإطلاق.

(١) يعني ما يُوضع فيه المتاع، وهو الجُوَالِق.

وقد روت عن النبي فأكثرت، حتىٰ بلغت مروياتها ألفين ومائتين وعشرةَ أحاديث؛ فهي من المُكْثِراتِ في الحديث.

وكان لها يدٌ طُولَىٰ في الفقه والفرائض.

وقد أجاب مسروق رحمه الله ـ وهو من تلاميذ أُمِّنَا ـ مَن سأله: هل كانت عائشة رضي الله عنها تُحْسِن الفرائض؟ فقال: إي والذي نفسي بيده، لقد رأيت مشيخةً من أصحاب محمد ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض[1].

وهذا أبو موسىٰ رضي الله عنه يقول: مَا أَشْكَلَ عَلَيْنَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ حَدِيْثٌ قَطُّ، فَسَأَلْنَا عَائِشَةَ إِلاَّ وَجَدْنَا عِنْدَهَا مِنْهُ عِلْماً[2].

وهذا عروة بن الزبير رحمه الله يقول عنها: لَقَدْ صَحِبْتُ عَائِشَةَ رضي الله عنها حَتَّىٰ قُلْتُ قَبْلَ وَفَاتِهَا بِأَرْبَعِ سِنِينَ أَوْ خَمْسٍ: لَوْ تُوُفِّيَتِ الْيَوْمَ مَا نَدِمْتُ عَلَىٰ شَيْءٍ فَاتَنِي مِنْهَا!

فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا قَطُّ كَانَ أَعْلَمَ بِآيَةٍ أُنْزِلَتْ وَلَا بِفَرِيضَةٍ وَلَا بِسُنَّةٍ وَلَا أَعْلَمَ بِشِعْرٍ وَلَا أَرْوَىٰ لَهُ، وَلَا بِيَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْعَرَبِ وَلَا بِنَسَبٍ وَلَا بِكَذَا وَلَا بِكَذَا وَلَا بِقَضَاءٍ وَلَا بِطِبٍّ مِنْهَا.

فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّهْ، الطِّبُّ مِنْ أَيْنَ عَلِمْتِيهِ؟.

فَقَالَتْ: كُنْتُ أَمْرَضُ فَيُنْعَتُ لِي الشَّيْءُ، وَيَمْرَضُ الْمَرِيضُ فَيُنْعَتُ لَهُ، فَيَنْتَفِعُ، فَأَسْمَعُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ فَأَحْفَظُهُ.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/١٨٢.

(٢) الموطأ ٦/١٢٤ ح ٤٩٣. ومصنف ابن أبي شيبة ٦/٢٣٩ ح ٣١٠٣٧.

قَالَ عُرْوَةُ: فَلَقَدْ ذَهَبَ عَنِّي عَامَّةُ عِلْمِهَا لَمْ أَسْأَلْ عَنْهُ[١].

ويقول الزهري ﷺ: لو جُمِعَ علم عائشة إلىٰ علم جميع أمهات المؤمنين وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل[٢].

وعَنِ الشَّعْبِيِّ: أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: رَوَيْتُ لِلَبِيْدٍ نَحْواً مِنْ أَلْفِ بَيْتٍ، وَكَانَ الشَّعْبِيُّ يَذْكُرُهَا، فَيَتَعَجَّبُ مِنْ فِقْهِهَا وَعِلْمِهَا، ثُمَّ يَقُوْلُ: مَا ظَنُّكُمْ بِأَدَبِ النُّبُوَةِ؟![٣]

وباب فصاحتها وبلاغتها باب عظيم شريفٌ يقتضي سِفرًا وحْدَه يجمع مروياتها وخطبها؛ لأنها كانت في الطبقة العليا من البلاغة![٤]

وكان لها مناقشات واستدراكاتٌ علىٰ بعض الصحابة الكبار فيما ذهبوا إليه من مسائل في العقيدة والفقه وغير ذلك، وقد أفرد الإمام بدر الدين الزركشي ﷺ كتابا قائما برأسه في هذا الأمر، أسماه «الإجابة لما استدركت عائشة علىٰ الصحابة».

وقال هشام بن عروة:

كان عروة يقول لعائشة: يا أُمَّتَاه! لا أعجب من فقهك، أقول: زوجة نبي الله، وابنةُ أبي بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس، أقول: ابنة أبي بكر، وكان أعلمَ الناس، ولكنْ أعجب من علمك بالطب كيف هو، ومن أين هو، أو ما هو؟!

قال: فضربت علىٰ مَنْكِبه، وقالت:

---

(١) الشريعة للآجري ٥/٢٤١١ ح ١٨٩٨، وسير أعلام النبلاء ٢/١٨٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/١٨٥.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/١٩٧.

(٤) لعل الله تعالىٰ ييسر تصنيف كتاب عن البلاغة الصديقية.

أي عُرَيَّة[1]، إن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يسْقَمُ عند آخرِ عُمُرِه ـ أو في آخر عُمُرِه ـ وكانت تَقْدَمُ عليه وفودُ العربِ من كل وجهٍ، فتُنْعَتُ له الأَنْعَاتُ[2]، وكنتُ أعالجها له، فمن ثَمَّ.

وقال الزهري: لو جُمِعَ عِلمُ الناس كُلِّهم، وأمهاتِ المؤمنين، لكانت عائشة أوسَعَهُم عِلمًا.

وقال أبو عمر ابن عبد البر أنها كانت وحيدةَ عصرها في ثلاثة علوم؛ علمِ الفقهِ، وعِلمِ الطِّبِّ، وعِلْمِ الشِّعر.

ومسرد هذه الفضائل طويلٌ مبارك، وليس غرضي في هذا الباب الإحاطة والاستقصاء.

وبعدُ..

فلعلك تتساءل في نفسك: لم أوردتُ لك هذا الذي تعلمه من فضائل أمنا وميزاتها، وما صِلَتُه بالحب؟

فأجيبك: إن كل ما ذكرتُ لك من مَنَاقِبَ ما كانت لتكون علىٰ هذا النَّسَقِ الذي رأيتَ لولا أنَّ أمَّنَا لها في حبها النبيَّ ﷺ شأنٌ فريدٌ سابِقٌ، لا يكاد يُحسنُ الإنسانُ البيانَ عنه.

فقد جمعَتْ قلبَها عليه، وأصْغَتْ بخفقها ورُوحها، وملأت سمعها وبَصَرَها

(١) تصغير عروة وترخيم، كما تكلم الأم ابنها، وكانت خالته ﷺ.

(٢) يعني الوصفات الطبية.

وأوردتها من محابه وتفاصيل أمره وشئونه كُلِّها، جَليِّها وخفيِّها، وجَعَلَتْ ترقُبُ كلَّ ما يتعلق به، وتُلِحُّ في معرفة ذلك، وتسألُه عما يُشْكِل عليها، وتَتْبَع في نَهَمٍ كل صغيرةٍ وكبيرةٍ من أمره ﷺ.

وسؤالاتها له ﷺ مستفيضةٌ في كتب السنة، فهي تحبُّ أن تفْقَهَ كُلَّ ما تسمع، وتعرفَ كل ما يتعلق به ﷺ.

ترقبه في عبادته مُرَاقَبَةِ المحبِّ الوامِق، وتُبيِّن عن هذا بيان الحبِّ أكثر من بيان الراوي الذي كان همه الروايةَ وحسب.

وحسبك وصفُها صلاتَه، كيف كان وصفًا مغموسًا في دواة الحب: «كان يُصَلِّي من الليل أربعًا، فلا تسألْ عن حُسْنِهِنَّ وطُولِهِنَّ».

فإذا ما رأيت لها استكثارا من الرواية، وعلمًا واسعًا سبقت به؛ فاعلم أن أصل هذا الحب، وأنها ـ مع ما حباها الله به من براعة ويقظة وعبقرية ـ كانت مشغولةً بكل ما يتعلَّقُ به ﷺ، خبرًا وفِقهًا وحالًا وعِلمًا، ولذلك كان يكون منها الكلمةُ الفاصلةُ، واستدراك المتَيَقِّن إذا علمتْ أو سَمِعَتْ ما يخالف ما تعْلَمُه من حاله وقوله ﷺ.

بل.. وفي حفظها الشعرَ واستكثارها منه، إنما يقع هذا عندي أثرًا من آثار الحب الذي يوقظ في المحب طَلَبَ التَّرَقِّي والتماس الفضائل، وما به يكون أفضل وأجمل وأزين في عين حبيبه.

أوتحسب مثلا أن مثل حديث أم زرع وغيره كان صُدْفَةً منها؟ أم أنها كانت تحتشد احتشادًا ليومها مع النبي ﷺ، فتُرَتِّب نفسَهَا وعَقْلَها وفِكْرها، ومادة الكلام

والحديث؛ لكي يكون مجلسُه معها مجلسًا مفارقًا لمجرد السكن والمبيت، فهي تُعنىٰ بكل ما تكون به أجمل في ظاهرها وباطنها.

وهذا كان فقهَهَا في ذلك الباب: فقهُ مَن تعلم مَعنىٰ الحب، ومعنىٰ أن تكون المرأة علىٰ أحسن وأجملِ أحوالِها مع زوجها، فكيف بها مع سيد الأولين والآخرين ﷺ ؟!

جاءت بكْرَةُ بنت عُقبة، فدخلت علىٰ أمنا رضي الله عنها فسألتها عن الحناء؟

فقالت: شجرة طيبة، وماءٌ طَهور.

وسألتها عن الحِفَاف؟

فقالت لها: إن كان لك زوجٌ، فاستطعتِ أن تَنزعي مُقْلَتَيْكِ، فتصنعينَهُمَا أحسنَ مما هما، فافعلي![1]

فهذا باب النَّظَر في سَبْقِها وتفرُّدها بهذه العلوم والمناقب رضي الله عنها.

ثم إذا أتيت إلىٰ صومها الدهر، وسِيَادتها في باب الكرم، وتنسُّكِها في باب العبادة؛ فإن لهذا شُجنةً وصِلةً بحبها العظيم.

ولشرح ذلك الأصل العظيم فاعلم أيها المبارك أن النبي ﷺ أخبرنا أن «الدنيا سجنُ المؤمنِ وجَنَّةُ الكافر»[2].

وقد أدار الشراح كلامهم في هذا الحديث علىٰ أمرين:

(١) طبقات ابن سعد (٨/٧٠).
(٢) صحيح مسلم (٢٩٥٦).

الأول: أن المؤمن عبد لله، وهو مخاطب بالأمر والنهي اللذين يكفان يده عن الخبط في الحرام ويقيدانه عن الرَّتْع في أودية الهوىٰ، بخلاف الكافر.

الثاني: أن الدنيا بكل ما فيها من لذائذ ونِعَمٍ تكون في معنىٰ السجن إذا قورنت بما أعده الله سبحانه وبحمده لعباده الصالحين من النعيم المقيم في جنات المأوىٰ.

وفي الحديث كلامٌ أوسعُ من هذين المعنيين، ولكن الذي أقصِدُ إليه منه فيما نحن بسبيله؛ أنَّ أمنا ﵂ ابتُلِيَتْ بالمُصَابِ الجَلَلِ والخَطْبِ الأعظم برحيل النبي ﷺ.

ومع ما كانت تفقهه من حاله، وشعورها بدنو ارتحالِه، إلا أنها حين عاينت ما كان يدور في بالها خاطرًا وظنًّا؛ طارتْ سَوَاكِنُها، ودَهِشَت دَهْشَةَ الوَلَهِ المُذْهِب للعقل، ووقع لها ما يقع من المُحِبِّ حين لا تدع له شُعَلُ الحقيقة ظلًّا يأوي إليه ويعتصم به!

تقول ﵂: «مات رسول الله ﷺ بين سَحْرِي ونَحْرِي، وفي دولتي[1]، لم أَظْلِم فيه أحدًا[2]، فمِن سَفَهِي وحَدَاثَةِ سِنِّي أنَّ رسول الله قُبِضَ وهو في حَجري، ثم وضعتُ رأسَه علىٰ وسادَةٍ، وقمتُ أَلْتَدِمُ مع النساء، وأضربُ وجْهِي»[3].

وهذا وَجْهُ فِعلها هذا! فعلَ الذاهل الذي صَعَقَتْه فُجَاءةُ الكرب، وحَطَمَتْ صبرَه فجعلتْه كبقايا الدِّمَنِ في قَبْضَةِ الرياح واللَّيْل!

وهي تعتذر بحَدَاثَةِ سِنِّها عن لَطْمِها وجهها؛ لعلمها بالنهيِ عن ذلك،

(١) يعني نوبتها.

(٢) يعني كان يومها ولم يكن يوم غيرها من زوجاته.

(٣) المسند (٢٦٣٤٨).

ولكنها دهْشَةُ الفاقد، ورجْفَةُ المُنْفَطِر![1]

وكيف لا، وقد عاينَتْ مرَضَه، وصَحِبَتْه في آلامِه ﷺ تُطَبِّبُه وتَرعاهُ، وهي في كل يوم تُجالِس مخاوفَ الفقدِ تتناثَرُ في عَقْلِها وقَلْبِها بمساميرها الكاوية!

وقد كان لها النصيبُ الأَثْقَلُ من مكابدة تلك الحقيقة وهي تُعَاينُها يومًا بعد يوم، وتُبَعْثِر سكينتَها يوما بعد يوم، وقد رأته ﷺ يصطفيها دون الكل لتكون معه في أيامه الأخيرة، وما أعظم هذا الشرف، وما أثقَلَه!!

فهي مُطَالَبَةٌ بأن تكون فَيْأَه المؤنس، وسكينَتَه المطمئنة، وفي نفسها ما فيها من معاول الهم وطوارق الأنين المستتر، تكابدها في صمت، تريد هي من يطبب روحها ويُسكن روعها!

ثم تسمعه يقول بأبي هو وأمي: «بل الرفيقَ الأعلىٰ»، فتعلم أنه خُيِّر، وتدرك أنها اللحظة الأخيرة.

ويصطفي الله لنبيه ﷺ أن يموت في بيت أمنا رضي الله عنها، وفي يومها، بين سحرها ونحرها، وأن تكون هي شاهدةَ الختام لحياةِ من هو أحبُّ إليها من روحها، سيد الأولين والآخرين ﷺ!

أتراها بعد هذه الزلزلة العظمىٰ يكون للدنيا في قلبها حضور؟!

كلا والله!

فاتخذت منذُ يومئذ سبيلَها إلىٰ الآخرة، صائمةً عن الدنيا، مقبلةً علىٰ ربها،

(١) هذا هو الوجه في فهم هذه الرواية، وقد فات من استنكرها هذا المعنىٰ، فذهب يعترض مع ثبوت السند!

تحفظُ ميثاق العَهْدِ مع سيد الأولين والآخرين، شأنها في الدنيا أمران:

١ ـ نَشْرُ علمِ سيِّدها ﷺ، وبثُّ سنته في أُمَّتِه، والقيامُ بأمانة البلاغ عنه في شأنه كُلِّه، وحفظُ ميراث هديه في العالمين، صغيرِه وكبيرِه، جَليِّه وخَفِيِّه، تُعِيدُه وتستزيد منه، وترويه أمانةً واستئناسًا[1]، كحال المحب إذا فقد حبيبه أعاد بناء تفاصيل حياته معه، وعلمه به، فيستكثر ويروي ويبالغ في التعرض لذكره وذكر شأنه، لا يفتر عن ذلك أبدا.

٢ ـ والزهد في الدنيا، ونفض اليد منها، فلا تبالي برياشها ومتاعها ومالها، ولا تركن إلىٰ نعيمها أبدا!

عن مسروق، قال: دخلت علىٰ عائشة، فدَعَتْ لي بطعام وقالتْ: ما أَشْبَعُ من طعامٍ فأشاءُ أن أبكي إلا بكيتُ!

قال: قلتُ: لم؟

قالت: أذكر الحالَ التي فارَقَ عليها رسول الله ﷺ الدنيا، والله ما شَبِعَ من خُبْزٍ ولحْمٍ مرتيْن في يوم[2].

وكانت لا تغبط أحدا بيُسْرِ احتضاره بعد الذي طالعته من حاله ﷺ وشدة الوجع عليه، عليه صلوات الله وسلامه.

---

(١) من الطرائف أن أمنا كانت لها مراسيل عنه ﷺ مع أن خزانتها من الرواية ملأىٰ. نعم مراسيل الصحابة معروفة، لكن أن يكون لمُكثر مراسيل، فهذا دليل إلحاف واهتمام وحرص علىٰ رواية حاله ﷺ، ومعرفة ما غاب عنها فلم تسمعه منه. انظر مثلا كلام الحافظ في الفتح عن حديث الحارث بن هشام ﷺ في صفة الوحي (١/١٩).

(٢) رواه الترمذي وغيره، وقال الترمذي: حسن صحيح.

فتقول ﵂: ما رأيت أحدًا أشدَّ عليه الوجعُ من رسول الله ـ ﷺ، وما أغبط أحدا بهوْنِ موتٍ[1]، ولا أكْرَهُ شدةَ الموت لأحد أبدًا بعد الذي رأيتُ من شدة موت رسول الله ـ ﷺ.

فإذا علمتَ هذا من نفسها؛ علمت كيف كانت نظرتها للدنيا، وكيف كانت تعُدُّ الأيام صوما وزهدا، ترقب الخلاصَ من هذه الدنيا إلىٰ الآخرة، فهي تسرد الأيام صبرًا وصومًا، وتجعل من صومها رِدْءًا يؤازر صبرها، ويعينها علىٰ لأواء الدنيا بعد أن أظلمت بفقدها النبي ﷺ، كما قال أنس ﵁:

لما كان اليوم الذي دخل فيه النبي ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليومُ الذي مات فيه النبي ﷺ أظْلَمَ منها كُلُّ شيءٍ، وما نفضْنَا عن النبي ﷺ الأيدي، وإنا لفي دفنه؛ حتىٰ أنكرنا قلوبنا!

ولقد كانت تقول متألمة بعد شيوع الفتن وتغير الأحوال:

قَالَ لَبِيدٌ:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ ❦ وَبَقِيتُ فِي نَسْلٍ كجِلْدِ الْأَجْرَبِ
يَتَحَدَّثُونَ مَخَافَةً وَمَلَاذَةً ❦ وَيُعَابُ قَائِلُهُمْ وَإِنْ لَمْ يَشْغَبِ

قَالَتْ: «فَكَيْفَ لَوْ أَدْرَكَ لَبِيدٌ قَوْمًا نَحْنُ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ؟»

قَالَ الزُّهْرِيُّ: «وَكَيْفَ لَوْ أَدْرَكَتْ عَائِشَةُ مَنْ نَحْنُ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمُ الْيَوْمَ؟»[2]

ولقد كان انصرافها عن الدنيا واختيارها الله ورسوله عقيدةً راسخة في

(١) يعني بتيسييره.
(٢) الزهد لابن المبارك ح (١٨٣).

جذوع روحها منذ القدم.

فقد خيَّرها النبي ﷺ بين الدنيا وزينَتِها، وبين اللهِ ورسولهِ ﷺ، فانظر كيف كان جوابها ترجمةً عن حبها العظيم، وانصرافها عن الدنيا ببهرجها وزيفها!

فيوم نزلت آية التخيير بعد اعتزاله نساءَه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩].

بدأ بها النبي ﷺ، فخَيَّرَها بين متاع الدنيا، وما تتوهَّجُ به زينتُها من مباهجَ وأضواءٍ فانيةٍ تَخْتِلُ النفوسَ وتستَلُّ القلوبَ من صدورها، وبين اللهِ ورسولِه والدارِ الآخرة، ومَهَدَ أمامَها العُذر لتُخْرِجَ ما في نفسها إن كان بها ميلٌ إلىٰ الدنيا، وحاشاها، فَقَالَ: وَلَا عَلَيْك أَن لَا تعجلِي حَتَّىٰ تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْك[1]..

فردَّت بصِدقها الفريد هذا الحشدَ المتدافعَ من الدنيا، واعتصمتْ بزُهْدِها المرتحلِ إلىٰ الآخرة، وتساءلتْ في تسامٍ فريد، قائلةً: أَفِي هَذَا أَستَأْمر أَبَوي؟! فَإِنِّي أُرِيد الله وَرَسُوله وَالدَّار الْآخِرَة!

فاستن بهَا بَقِيَّة أَزوَاجه ﷺ وقلن كَمَا قَالَت.

فكان في جوابها كمالُ الحب وجماله؛ وأتت بالإجابة في هيئة المستنكر الذي يدفع دفعا أن يُظن به الخيرة في أمر كهذا!

وكان إنكارها وحده كفايةً وجوابًا، وكان في تقريرها بعد السؤال ما فيه من

(١) البخاري في مواضع منها ٣/١٣٣ ح٢٤٦٨. ومسلم ٢/١١١٣.

أنوار قلبها، ورشاد عقلها، وجمال حُبِّها للنبي ﷺ

فإذا اتضح لك هذا الأصل الشريف؛ فقِهْتَ شيئًا من أسرارِ اصطفائِها وسبْقِها غيرَها، وأنَّ الفلك الذي نبتت فيه نجومُ فضائلها هو فلكُ الحب الأعلىٰ، الذي كان المبتدأ والمنتهىٰ بالنسبة إليها رضي الله عنها.

فقه الجمال

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

وبعدُ.

فقد كان هذا الكتاب من أوله إلىٰ آخره مبحثًا من مباحث النَّظر في «الجمال الإلهي»؛ فإن الله تعالىٰ جميلٌ في ذاتِه، جميلٌ في أفعاله، جميلٌ في أسمائه، جميلٌ في صفاته.

ومن جماله تعالىٰ اصطفاءُ من يجعلهم الله تعالىٰ تجليًا لرحماته، وأنواره، وما كانت مُدارَسَتُنَا شخوصَ أوليائه، والنظرُ في معالم نفوسهم؛ إلا بابًا لمطالعة جمال خِيرَته، وحكمة اصطفائه، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فما مَرَّ بنا في الكتاب جُذاذَاتٌ صغيرةٌ في دفتر الإيمان، والفقهِ عن الله تعالىٰ، ولَمْحِ مُرَادَاتِه في خلقه، وهذا بابٌ عظيم من الفقه تَدَبُّرًا لأفعال الله وآلائه، وصفاته وأسمائه.

والعبد البصيرُ ينْفُذُ من مُشَاهَدَاتِ الأصفياء إلىٰ مطالعة حِكْمَةِ الله فيهم، وَجَمَال هداية الله لهم، وبهذا ينبعث العبدُ في ميدان العبودية وقد أمَّه الحب، فهو يقتدي بأهل الاصطفاء، ويتبع آثارهم: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

فكلما مررتَ بأثر حُبٍّ، ودَمْعَةِ وجدٍ، ومحرابِ صَلَاة، وخَلوةِ مُنَاجاةٍ، أو

تَهَادَىٰ إلىٰ سَمْعِك خَفْقُ ذاكرٍ، أو تلاوةُ قارئٍ، أو أبصَرَتْ عيناك يدًا ترتجف بأطماعِها في ظلال الضراعة، أو علِمْتَ ناجيًا قد استفاض الناسُ ثناءً عليه ودعاءً له؛ فاعلم أنَّ هذا كُلَّه تجلياتُ رحْمَتِه وهدايته تعالىٰ، وعنايتِه بخَلْقِه، وصلةُ وُدِّه التي تصبغهم بالحياة، وتهديهم إلىٰ النجاة.

فما كان كل أولئك ليكونوا من أهل النور والاصطفاءِ إلا بسابق سَعَادة كان منه سبحانه وبحمده ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

فالأمر كما قال أبو سليمان الداراني، وهو يخاطب أحمد بن أبي الحواري، رحمهما الله فقال له: يا أحمد! إنَّ أهل الطاعة ليس بالطاعة سَعِدُوا، ولكن بالسعادة أطاعوا[1]!

اللهم لك الحمد علىٰ نورك وجمالك، ولك الحمد علىٰ دينك ونبيك، ولك الحمد أن اختصصتَه بصَفْوَتِك من خَلْقِك، فكانوا نِبْرَاسًا نَقتدي به، وحنانًا نأوي إليه.

اللهم صل علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد، كما صليت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد.

اللهم بارك علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد، كما باركت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم، في العالمين؛ إنك حميد مجيد.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

---

(١) تاريخ دمشق (١٨/٢٧٦).

المصادر والمراجع

* **أولا: القرآن المجيد.**

* **تفسير الطبري.**

محمد بن جرير الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، ت: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

* **تفسير الزمخشري.**

الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل، تصنيف أبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.

كتب السنة والآثار

* **مسند الإمام أحمد بن حنبل**

أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

* **صحيح البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري**

محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

* **صحيح مسلم: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ**
مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

* **الجامع الكبير ـ سنن الترمذي**
محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، المحقق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، سنة النشر: ١٩٩٨ م.

* **المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي**
أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦.

* **سنن أبي داود**
أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقق: شعَيب الأرنؤوط ـ محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م.

* **سنن ابن ماجه**
أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: ٢٧٣ هـ)، المحقق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الأولى ١٤١٨ هـ، ١٩٩٨ م

* **الشريعة للآجري.**
أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، الناشر: دار الوطن ـ الرياض/ السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م

* **مستدرك الحاكم**
أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم

الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ ـ ١٩٩٠.

* **المصنف لعبد الرزاق.**

أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١ هـ)، المحقق: مركز البحوث بدار التأصيل، الناشر: دار التأصيل ـ القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ ـ ٢٠١٥ م.

* **معجم الطبراني الكبير**

سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة، الطبعة: الثانية.

* **معجم الطبراني الأوسط.**

سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين ـ القاهرة.

* **مختصر صحيح البخاري للألباني**

أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتَبة المَعارف للنَّشْر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠٢ م.

* **الجامع الصحيح للسنن والمسانيد.**

صهيب عبد الجبار (كتاب إليكتروني).

* **عِشرةُ النِّساءِ للإمامِ للنسائيِّ**

تصنيف علي بن نايف الشحود، الطبعة: الثالثة [مُعَدَّلةٌ ومزيدةٌ]، الناشر: بهانج ـ دار المعمور ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م.

شروح السُّنَّة

* **شرح الطِّيبِي على مشكاة المصابيح المسمى بـ(الكاشف عن حقائق السنن)**

شرف الدين الحسين بن عبد الله الطِّيبي (٧٤٣هـ)، المحقق: د. عبد الحميد هنداوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة ـ الرياض).

* **فتح الباري شرح صحيح البخاري.**

أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة ـ بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب.

* **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**

أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢

* **الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني**

أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الساعاتي (المتوفى: ١٣٧٨ هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثانية

* **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**

أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف).

* **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**

أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، دار النشر: دار المعارف، الرياض ـ المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م.

* **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**

أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (المتوفى: ٩٢٣هـ)، الناشر: المكتبة التوفيقية، القاهرة ـ مصر.

كتب الطبقات والسير والتواريخ

* **طبقات ابن سعد**

أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٦٨ م.

* **الاستيعاب لابن عبد البر**

أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م

* **سيرة ابن هشام**

عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥ م

* **الذرية الطاهرة**

أبو بِشْر محمد بن أحمد بن حماد بن سعيد بن مسلم الأنصاري الدولابي الرازي (المتوفى: ٣١٠ هـ)، المحقق: السيد محمّد جواد الحسيني الجلالي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي، تاريخ النشر: ١٤٠٧

* **تاريخ مدينة دمشق**

ثقة الدين، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١ هـ)، المحقق: علي شيري، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

* **سير أعلام النبلاء للذهبي**

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

* **تاريخ الإسلام للذهبي**

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: الدكتور بشار عوّاد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي.

* **إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع**

أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (المتوفى: ٨٤٥هـ)، المحقق: محمد عبد الحميد النميسي، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م.

* **العقد الثمين للفاسي**

العِقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي (المتوفى: ٨٣٢ هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٨ م

كتب العربية والأدب

* **لسان العرب**

محمد بن مُكَرَّم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر ـ بيروت، الطبعة: الثالثة ـ ١٤١٤ هـ.

* **الكامل في اللغة والأدب**

محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار الفكر العربي ـ القاهرة، الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م.

* **أمالي أبي علي القالي**

أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان (المتوفى: ٣٥٦هـ)، عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، الناشر: دار الكتب المصرية، الطبعة: الثانية، ١٣٤٤ هـ ـ ١٩٢٦م.

* **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**[1]

آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال (٢٣)، منظمة المؤتمر الإسلامي ـ مجمع الفقه الإسلامي ـ جدة ـ مطبوعات المجمع، تأليف: الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١)، تحقيق: محمد عزير شمس.

* **وحي القلم للرافعي**

مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (المتوفى: ١٣٥٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

(١) أدرجته هنا لأنه أقرب الأقسام به شبها! مع أنه كتاب ليس في الأدب ولكنه في العرفان والسلوك.

نبذة عن الكتاب

يركّز هذا الكتابُ على تجليات العظمة، ومخايل الكمال، التي اتسمت بها الشخصيتانِ الرائعتان، السيدتان: فاطمة وعائشة رضي الله عنهما، حتى تحقّقت فيهما معاني الصّديقية، حيث الصّديق وصفُ مبالغةٍ من الصّدق، فهو كثير الصدق، الصدق في الإيمان، والصدق في الأقوال، والصدق في الأفعال. يقدّم هذا الكتابُ قراءة علمية ووجدانية لهذه التجليات الصدّيقية في شخصية الصديقتين وحياتَيْهما، في نصّ أدبيّ راقٍ، محفوف بالحب، مشغوف بالتدبّر، مُتْرَع بالبيان. إنه تأمُّل عميق في استقراء أحداثٍ ومعانٍ جليلة في سيرة الصّديقتين، تبيّن كيف عاشا الحبَّ لله ورسوله، وكيف انطبع ذلك الحبّ نورًا وبهاءً على سائر سجاياهما، وأفعالهما.

هاتف : ٢٢٥٦٠٢٠٣ – فاكس: ٢٢٥٦٠٣٤٦
www.almabarrah.net
E.mail : almabarrh@hotmail.com
almabarrah